

**اسم السلسل: فتشوا الكتب رقم الكتاب**  
**بالسلسلة: ٢٣٣ اسم الكتاب: سيرة إرميا أو كلام**  
**الله وقت الشدة المؤلف: دافيدادي**  
**المترحم: د. جرحس ميلاد**  
**مقدمة**

أعترف بأنه لم يجهدني كتاب في ترجمته مثلما أجهدني هذا الكتاب، ذلك لأن مؤلفه استخدم كلمات لم ترد في قواميسنا العادية - برغم تميزها وجودتها - ثم لأنه كان يقتبس من روايات تتحدث عن الثقافة والبيئة في الغرب، لكنني أشكر الله لأنه يعطي العلوقة في حينها فاستطعت بنعمته ترجمة هذا الكتاب. ولعلي أنصح القارئ العزيز بأن يقرأ هذا الكتاب عدة مرات لأنه يحمل معاني عميقة مستوحاه من سيرة حياة نبي عظيم مثل إرميا وهي ليست سهلة الاستيعاب. ولعلي أيضاً أطلب من القارئ الفاضل أن يبدأ القراءة بالخاتمة الواردة في نهاية الكتاب وذلك علي عكس المعتاد، وسوف تجد في هذه السيرة المباركة ما يساعدك عملياً في حياتك الروحية. ولإلهنا كل المجد.

المعرب

## الفصل الأول

**كان الملك العجوز يحتضر، إذ كان "أشربانيبال"<sup>(١)</sup> السيد الأعلى لأشور يرتحل حتماً ولئن كان ببطء وبألم نحو أرض اللاعودة، وكان القصر في نينوي صامتاً علي خلاف المعتاد انتظاراً لساعة الاعلان الحتمي بأنه قد انضم إلي آبائه، وكان**

(١) الملك "أشربانيبال" حكم آشور عام ٦٦٨ ق . م إلى حوالي ٦٣٩ ق . م وهو ابن الملك أسرحدون الذي ورد اسمه في سفر عزرا ٤: ٢ ومعنى اسمه خالق الوريث. (المعرب).

النشاط الوحيد في تلك الحجرة التي رقد فيها مخدراً بالأدوية، هو نشاط أطباء القصر والسحرة وهم يقومون بفنونهم السحرية، تلك الخيوط المظلمة من العلم والسحر، وقد قاموا بكل جدية وإتقان بالتعاون بالمختلفة التي كانت بمثابة الرمية الأخيرة الفاشلة ذلك لأن الملك كان بعيداً عن محاولتهم، وكما اعتقدوا فإن ملائكة الموت كانت قد استولت علي حياته. وكان هذا الملك قد ملأ مكتبة نينوى العظيمة بكل الأبحاث الطبية التي عرفها الإنسان آنذاك، إلا أن الآلاف من هذه المجلدات لم تنقذه من الموت، وهكذا يموت الملوك في وحدة وبلا عزاء.

ولم ير كثيرون عندئذ سبباً للحزن، وقد انتظروا موته على أحر من الجمر، لأن الملك العجوز كان قد ورث إمبراطورية لها أكثر من ستمائة عام وقد احتفظ بها سالمة بيد من حديد. وكان موته إشارة لثورات العصيان ابتداء من بابل شرقاً إلى فلسطين غرباً، وكل منطقة صغيرة لكل مملكة بسيطة كانت قد استعدت لاختبار قوة أشور وحدودها وذلك بمجرد انزلاق السلطان من بين أصابع الملك العظيم. وفي عيلام كانت لهم ذكريات طويلة وقد تذكروا أن "تيومان" حاكمهم قد قُطعت رأسه وكيف أن الأشوري كان قد صفعه وبصق علي وجهه وأخيراً علق الرأس كزينة دموية في عيد احتفاله. ومن الصفات التي اكتسبها أشربانيبال هي الانتقام والحقد الشديدان، وكانت أعماله في أذهان كل أفراد الامبراطورية مثل تقطيع أجساد الحكام وإلقائها للكلاب لتنهشها كما تم فتح قبور الأموات في الماضي حتى تتعرض عظامهم للشمس، كما أخذ ملك عربي إلي نينوى ورُبط بسلسلة في مؤسسة للكلاب عند بوابة المدينة. ولذلك لم تذرف

دموع كثيرة عند وفاة آرشربانيبال. ولكن الآن بعد مرور أربعين عاماً من الظلم قد أتى الوقت لكي تهتز الأرض وترتعد الجبال ويقوم أمراء العالم، ولم يكن أحد يعلم ذلك في حينه، ولكن في غضون خمسة عشر عاماً سوف تسقط نينوى وتتسبد بابل، وفي الوقت ذاته كان ملوك المقاطعات ينتظرون أخبار موت آرشربانيبال متوقعين أن الآلهة كانت علي وشك أن تقبض بيدها علي حياته.

**ولكن علي بعد خمسمائة ميل هناك في فلسطين فقد رقد الملك يوشيا الصالح ملك يهوذا،** وكانت مملكته صغيرة علي حدود امبراطورية آشور. وقد وصل إلي العرش وهو في الثامنة من عمره كطفل ملتهب برؤية الشعب الراجع بحق إلي الله الذي أخرجهم من مصر بيت العبودية. ولما كان في الحادية عشرة من عمره فقد تشبّع بقصص الملك العظيم داود ومن ثم تشوق أن يكون مثله "رجلاً حسب قلب الله" كما ارتعد من فكر الملوك الخائنين مثل يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطيء، وتألّم من أجل انقسام الأمة إلي شمال وجنوب أي إسرائيل ويهوذا، ونذر يوماً لكي يتحدهما معاً. ولاشك أنه تأمل جلياً في الحشود الأشورية التي دمرت إسرائيل منذ مائة عام وسبت إخوته بعيداً، وتعلم الدرس أن العقاب كان بسبب تعبدتهم للبعل وعشتاروث آلهة كنعان القديمة وضلوا عن يهوه الإله الذي قادهم في البرية. وأهم ما فعله يوشيا هو أنه أحب أورشليم وجبل صهيون كأفضل مكان علي الأرض وحيث يسكن اسم الله. وقبل ذلك بعامين، أي في عام ٦٢٩ ق.م إذ كان آشربانيبال لايزال حياً، بدأ يطهر الأمة ويعود بها إلي الله، واستمر في إصلاحه حتى موته في عام ٦٠٩ ق.م مطيعاً

لدعوته في غيرة شديدة، وكان كل ما قام به بمنتهى القوة. ويسرد لنا الكتاب قصصاً مثيرة عما فعله من تدمير وإحراق لكل مذبح وثني ولكل رمز لعبادة وثنية، كما نجس كل هذه الأماكن والمذابح وحرق فوقها عظاماً بشرية حتى لا يمكن إعادة استخدامها للعبادة الوثنية في ما بعد "فَنَادَى نَحْوَ الْمَذْبَحِ بِكَلَامِ الرَّبِّ: يَا مَذْبَحُ يَا مَذْبَحُ، هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُولَدُ لِبَيْتِ دَاوُدَ ابْنٌ اسْمُهُ يَوْشِيَا، وَيَذْبَحُ عَلَيْكَ كَهَنَةَ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّذِينَ يُوقِدُونَ عَلَيْكَ، وَتُحْرَقُ عَلَيْكَ عِظَامُ النَّاسِ" (١ مل ١٣: ٢)، "وَأَحْرَقَ عِظَامَ الْكَهَنَةِ عَلَى مَذَابِحِهِمْ وَطَهَّرَ يَهُودًا وَأُورُشَلِيمَ" (٢ أخ ٣٤: ٥). أمّا القائمون علي تلك العبادات من كهنة ومتفرغين فكان نصيبهم الموت، وهم الذين باعوا أنفسهم للبعل ولعشتاروث وللشمس وللقمر وللنجوم ولكموش ولمولك، فلم يستحقوا الحياة وقد حرّم التنجيم والسحر الأسود، واقتصرت العبادة ليهوه فقط وفي مسكنه لا سواه في هيكل أورشليم. وأزال يوشيا المذابح التي كانت في كل قرية بعدما دنسها. وكل هذا كان لا يزال يحدث حتى تلك الليلة في عام ٦٢٧ ق.م عندما رقد يوشيا بهدوء وسلام مع نفسه ومع الله، ذلك لأن يد الله كانت علي حياته، وبمعونة يهوه استطاع أن يفلت من نير آشور، ولكنه استطاع أن يجعل الأرض تهتز والجبال ترتعد.

**وعلي بعد ثلاثة أميال من الشمال الشرقي لأورشليم،** وفي قرية عناثوث الصغيرة كان إرميا بن حلقيا الكاهن قد اهتز بعنف في نومه. وبالرغم من سقوط بعض الدول وموت ذلك الملك الكبير فإنه لم يلحظ ذلك. إلا أن الله بقدرته العجيبة كان سوف يجعل من إرميا رمزاً في أورشليم بعد سنوات قليلة ولن يكون غريباً على البلاط الملكي أو

الهيكل. وهذا الإنسان المنزعج سوف يخافه البعض ويبغضه البعض الآخر ويسخرون منه وقد يحبه القليلون من الناس. وسوف يكون له صديق مخلص يدرك قيمة كلامه ويدونه ويُقدّر بغيريته الطبيعية أنه ثمين جداً ولا يجب أن يُفقد مع الريح، وسوف يحدث في السنوات التالية أن يتقدم البعض للتأمل العميق في هذه الكتابات، وسوف يأمرّون بها، ويطبّقونها، ويشعرون أنه من خلال كلام هذا الرجل ومن خلال حياته أن الله لا يزال حياً بقوة الله... وبعد مرور ألفي عام في عالم لم يستطع إرميا أن يتخيله أبداً ولو في أحلامه، فإنه يمكن لنا أن ندعه يتكلم بكلمته الحية وربما في صورة هذا النبي أكثر من غيره فإن الله يظهر لنا ذاته وقلبه وغضبه ومحبته واشتياقه للجنس البشري. وإن كنا لا نعلم بالتحديد تلك الصورة المظلمة والتخيلات التي انتابت إرميا في أحلامه لكن الوقت سوف يأتي لكي نعلم بأن هذا العام هو عام دعوته حالياً، وطالما أن الله كان يضع يده علي حياته فسوف تهتز الأرض وترتعد الجبال.

## الفصل الثاني

(إر ١: ٢ - ١٩)

"كَلَامُ إِرْمِيَا بْنِ حَلْقِيَا مِنَ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ فِي عَنَاثُوثَ فِي أَرْضِ بَنِيَامِينَ، الَّذِي كَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيْهِ فِي أَيَّامِ يُوَشِيَّا بْنِ آمُونَ مَلِكِ يَهُوذَا، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ مِنْ مُلْكِهِ" (إر ١: ٢).

كانت تلك هي طريقة الكتاب المقدس في التأريخ للأنبياء وهي الصيغة المستقر عليها. أمّا بالنسبة لإرميا شخصياً فهي تحديد اليوم الذي وقع السقف عليه! وكانت لحظة

دعوته، فمن الآن فصاعداً أصبح رجلاً مُميزاً إذ قد وضع الله يده على حياته. وربما نلمس شيئاً من الرومانسية في أمر "الدعوة" وهي اختبار عظيم أن يختارك الله مثلما يحدث مع المحظوظين الذين يفوزون بجوائز قيمة!

ولئن كانت دعوة الله تحمل اختباراً عظيماً فهي لأجل الأمانة مصحوبة بالهلع بقدر الفرح، وهي أقرب إلي أمر الاستدعاء القضائي منه إلي دعوة مهذبة. أمّا معارضة إرميا فليست غريبة: "آه، يَا سَيِّدُ الرَّبِّ، إِنِّي لَا أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ" (ع ٦). هناك حزمة واحدة تربط المجد مع النير والامتياز مع المسؤولية، وكلما تطلعنا إلي قصة دعوة إرميا وجدنا خليطاً متشابهاً من المتناقضات تظهر لنا بين الحين والآخر، ولكن حيث إن الله يظهر بنفسه خلال الزمن فسوف نحصل علي متعارضات ومتناقضات ظاهرة فقط، وهو ما يجب أن نتوقعه.

### تدخل أم إنجاز؟

إن دعوة الله تبدو كأنها حالة مثالية من التدخل، وربما تأتي أوقات سوف يقول فيها إرميا للرب "دعني بمفردي وابتعد عن حياتي!" ولكن الواقع أنه بتدخل الله في حياة إرميا قد حقق به إنجازاً، وقد يبدو هذا التعبير غريباً ويحتاج إلي بعض الشرح. ولعلي أقصد ما يلي بأن دعوة الله قد أتت من خارج إرميا لكنها تحدثت إلي شيء عميق في داخله، وقد وضعت حياته الشخصية وبرامجه الخاصة في إطار قصة طويلة تعود بالطريق كله إلى بداية الخليقة، فحتى قبل أن حُبِلَ به كان الله قد أعد له خطة لحياته، وكأنه قد وضعه على جانب واحد مثل الأواني المقدّسة في الهيكل، وقد عيّنه ليكون نبياً قبل أن يعرف معنى هذه الكلمة بزمن بعيد. ويبدو هذا وكأن النير قد وُضع علي كتفي إرميا مما يحدد كل نواحي حياته، فدعوة

الله هي "معرفة" ما هية الحياة كلها، ولم يندفع إرميا ليصير نبياً فلم تكن تلك هي فكرة اللامعة، وليست مثل رجل يصحو في أحد الأيام ويقول: "أعتقد أنني سوف أصبح رئيساً للأساففة"، لكن إرميا بدأ يكتشف سبب وجوده وقانون كيانه. ولم يتحتم عليه أن يخترع أو يصنع معنى لحياته، ولم يضطر أن ينسجها من خيوط مشاعره أو رغباته ولكنها صارت منسوجة في بنية هذا الكون، وبقيت هناك تنتظر اكتشافها. وعندما يدرك الفرد هذا الأمر سوف يكون له تأثير فعال وعملي. كنت أتناقش مع شابة بخصوص مستقبل حياتها، وكانت تنتظر مقابلة تأمل من ورائها أن تكون لائحة لجيش الكنيسة، قالت لي: "أنا لست قلقة ولكني أود أن أرى ما إذا كان الرب في الأمر من عدمه وربما أجد دوري في مكان آخر".

لقد كانت واثقة أن الرب سوف يدعوها إلي العمل المعدة هي له، وكان ذلك سبباً في تحررها، ولم تشعر وكأنها مفقودة في غابة فسيحة تهيم علي وجهها. وربما لا يزال وكأن الله يضغط على إرميا، ولا بد أن ندرك سرّاً هنا. ومن الواقع الحقيقي أن الله قد خطط مسبقاً مسيرة نبي لهذا الشاب إلا أن ذلك لم يترك إرميا دون تعليق، وعلى أية حال فإن الدعوة سارت في حوار مزدوج، فالله يتكلم والإنسان يجاوب. وكان إرميا حراً في أن يقول نعم أو لا بكل ما لديه من شكوك أو معارضة أو تردد. ولكن كل ما أريد التركيز عليه هو أنه في قبوله لدعوة الله كان يقول "نعم" للحياة التي خُلق من أجلها.

**قوة أم محبة؟**

إن قصة الدعوة تحوي تناقضاً هاماً، فالله يعلن ذاته قوة ومحبة معاً. ومن جانب واحد فهو يهتم جداً بإرميا ولكن في الوقت ذاته يضع عليه متطلبات مرعبة. وكلمة "عرفتك" هي تعبير عن الألفة والعهد، وفي إحدى الترجمات وردت بمعنى "عرفتك لنفسي" فالله يعرف إرميا تمام المعرفة وقد تعهده بقوة كما يفعل الزوج لزوجته. ويعرفه كابن خاص له ويقف في جانبه ويعدده بأن يظل معه في كل موقف وقد أسند إليه أمراً عظيماً، وبعد وقت قصير سوف يحمل هذا "الطفل" أو "الوليد" شرفاً إلهياً، ومنَ يتميز بذلك فهو أمر يكاد لا يصدق. أمّا التناقض فبالطبع أن الله الذي هو قريب جداً لإرميا ومحب له ووثق فيه كخادم هو أيضاً الإله الذي لم يقبل عذر إرميا عندما قال "آه، يَا سَيِّدُ الرَّبِّ، إِنِّي لَا أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لِأَنِّي وَلَدٌ" بل كانت إجابة الرب له صارمة: "لَا تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ، لِأَنَّكَ إِلَى كُلِّ مَنْ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِ تَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا أَمُرُكَ بِهِ" (ع ٧) ولم يكن إرميا مثل أسد تم ترويضه، بل كان أمام تهديد وطلب مثلما كان أمام محبة واهتمام. ولا يزال الله كذلك، فهو دائماً يدعونا لكي نقوم بأعمال مثيرة ومخيفة. وكأننا مثل جنود تحت التدريب، ويقف الواحد منهم مشلولاً على باب الطائرة معلقاً في أنياب الريح، ومن خلفه يقف المدرب والمرشد الذي يعلم إمكانية الجندي وقد تعهده بشدة. ولكن ما هي نتيجة هذا التعهد؟ إنها الأمر "اقفز" مصحوباً بدفعة من الخلف.

يا له من اختبار مثير أن تكون محبوباً وموثوقاً فيك من الله. وربما في عصرنا الحالي يسهل علينا أن نرى الله في عيد الميلاد كالأب اللطيف الحلو. لكن إرميا شعر أن الله يضغط عليه بقوة لكي يواجه أموراً الواحد بعد الآخر، وربما رأى في



بعض الأحيان أن اختياره كان محصوراً بين الخوف من البشر والخوف من الله، لكن الله يستدعينا للأعمال الصعبة. وقد رآها الرسول بولس كالمعركة التي نتوقع فيها الصدمات القوية. وقال الرب يسوع أن "لَا نَخَافُ مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ" (مت ١٠ : ٢٨). ولكن من بين المواعيد التي أعطيت لإرميا كان له هذا الوعد: لا تخف منهم الآن وإلا فإنني سوف أحطمك أمام عيونهم.

### كلامه أم كلامي؟

لم ينزعج إرميا من حقيقة أنه لا يعرف كيف يتكلم فحسب بل من حقيقة صلاحيته للكلام، ولماذا أنا بالذات؟ وأنا ولد بعد وسوف يقول الناس ماذا يظن هذا الولد في نفسه؟ أما إجابة الرب فكانت هي لمس فمه، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً صار حاملاً للكلمة، وما سوف يقوله فهو "كلامه" هو بالطبع، ولئن كان سوف ينطقها بلهجة قريته عناثوث بما تحمله من ذكريات طفولته كما تعكس خبراته مستخدماً صوراً من البيئة اليهودية.

بيد أن الحقيقة المدهشة الباقية هي أن الله سوف يجسد كلمته في كلمات كائن بشري. "لماذا أنا بالذات، وما هو حقي أن أتكلم؟" "ها قد جعلت كلامي في فمك" وهكذا يستطيع إرميا باسم الرب أن يتكلم بما لا يتجاسر أن يتكلم به من ذاته، كما يستطيع أن ينادي برسالة إلي "الشُّعُوبِ وَعَلَى الْمَمَالِكِ" وقد يكون في وقت ما "لِتَقْلَعِ وَتَهْدِمَ وَتُهْلِكَ وَتَنْقُضَ" وفي وقت آخر "تَبْنِي وَتَغْرِسَ". وكثيراً ما نجد أنفسنا في موقف مماثل ونسأل: "كيف أتجاسر واتحدث عن الله لأي

فرد آخر... بالرغم من سجل فشلي وخيانتني وكبريائي؟ هذا مجرد عجرفة!" وهذا واقع.

ولكن أتذكر تعليقا لواعظ شهير وجد حلاً لهذه المشكلة إذ قال إنه في كل مرة يصعد درجات المنبر كان يكرر هكذا: "إني واثق في الرب الروح القدس معطي الحياة". وبدون لمسة معطي الحياة هذا فلا قدرة لنا أن نفتح أفواهنا، ولكن الله من وقت إلى آخر يوافق أن يلهب كلامنا المتعثر بقوة وسلطان لا استحقاق لنا فيهما، ومن ثم يصبح كلامي أنا كلامه هو، وهكذا يعمل الله، وتلك معجزة.

### كوي أم مرايا؟

لم تكن هذه هي المعجزة الوحيدة. وعندما دعا الله إرميا أعطاه منظوراً جديداً على العالم. وقد أتت دعوة الله من "ذلك" العالم لكنه عكس كل ما لراه إرميا في "هذا" العالم. ونستطيع ان نستشف شيئاً من ذلك من رؤيته الجديدة: "مَاذَا أَنْتَ رَأَيْتَ يَا إِرْمِيَا؟" وهنا لم يعد يرى مشكلة نحو الرسالة التي سوف يركز بها فقد تفتحت عيناه، ووقع نور الله علي الأمور العادية، واستطاع أن يري الله عاملاً حتى في أتفه الأمور، والعالم الذي كان مرآه تعكس وجهه الخاص به أضحي نافذة علي الله وأصبحت الحياة كلها علامة. واشتعلت كلمة الله بما في العالم من أواني وأطباق وأشجار وزهور وأكواب ونباتات وصار أقل شيء كأنه صدي لصوت الله، مثلما التهب مجده من عليقة بسيطة. يقول لنا المفسرون إن إرميا رأى قضيب لوز وعليه مقلاة، وأن هناك تورية في كلمة "لوز" وفي كلمة "أنا ساهر" وربما لا يساعدنا هذا كثيراً فالتورية في الكلام تدعو إلي الهمهمة. وقد وجد العبرانيون غرابة وغموضاً

رغم افتتانهم بطريقة أن نفس الكلمة قد تنتمي إلي عالمين مختلفين في ذات الوقت.

وهكذا أصبحت الحروف المجردة هي الرباط بين مجالين من المعنى. وهكذا هنا فإن كلمتي "لوز" ، "سهر" كأنهما شعاع يمتد من عالم إلي عالم آخر، وكأن قضيب اللوز يقول إن "الله ليس ميتاً" بل هو على وشك الخروج إلي الحياة، بينما هناك أزمة قادمة إذ إن المرجل أصبح عند نقطة الغليان. وأعتقد أن هذا هو دائماً طريق توصيل الله لرسالته إلينا، فهو لا يصيح بحقائق لا تنتهي من ارتفاع شاهق، ولكنه يجسد لنا ما يريد أن يقوله، وعندما يختار أن يعلن مجده فإنه يفعل ذلك من خلال إنسان فرد له جسد ودم يأكل في بيت عشار أو يلمس أبرص أو يغسل أرجل تابعيه أو يموت علي الصليب. وبذلك تكون الرسالة واضحة - على الأقل لمن لهم عيون تبصر - وكل شيء له وجهان أحدهما مسطح غير ملحوظ وذو رتابة والآخر يتجلى حاملاً مجد الرب.

### قوة أم ضعف

كان علي إرميا أن يتعلم بأن الرب الذي يطلب أموراً مستحيلة يعطي مصادر لا تنضب، وكان عليه أن يكتشف بأن قوة الله تأتي فقط من خلال ضعفه الشخصي. ولا أظن أن هذه القاعدة يمكن أن نتعلمها كما يجب من خلال الكتب، وربما نطن أننا نفهمها ونقبلها، ولكننا نُثبت حقها فقط وتصبح جزءاً من حياتنا من خلال الاختبار العملي. كان الأسقف "ليونارد ويلسون" على سنغافورة إبان الحرب العالمية الثانية، وكان مسجوناً بواسطة اليابانيين، وقد اعترف بأنه لم تكن له أية رغبة للصلاة طلباً للشجاعة، وكان خائفاً من أن الله يعطيه فرصة ممارسة ذلك! وهذا رجل أمين في كلامه

مؤمن بمبدأ "قوتك في الضعف تكمل" ولا يوجد أصعب من استعدادك لأن تنكسر لكي تثبت صحة ذلك. ويجب أن أضيف بأن ذلك الأسقف قد أثبت فعلاً صحة هذا المبدأ عندما حل وقت الاختبار وتدفقت منه قوة الله وغفرانه. وربما شعر إرميا برغبة جامحة أن ينزوي ويختبئ داخل حفرة وسط تلال اليهودية، وهو الرجل الحساس، ومَنْ ذا الذي يريد أن يكون غريباً ويقف وحيداً أمام الملوك والرؤساء والكهنة والشعب؟ ومَنْ ذا الذي يريد أن يكون نبياً إذا كان الأمر يتطلب ذلك؟ ولكن كما تحوي المقولة القديمة: عندما يدعو الله فإنه يؤهّل أيضاً. وهنا يرن الوعد عالياً: "قَدْ جَعَلْتُكَ الْيَوْمَ مَدِينَةً حَصِينَةً وَعَمُودَ حَدِيدٍ وَأَسْوَارَ نُحَاسٍ عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ، لِمُلُوكِ يَهُودَا وَلِرُؤَسَائِهَا وَلِكَهَنَتِهَا وَلِشَعْبِ الْأَرْضِ فَيُحَارِبُونَكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ، لِأَنِّي أَنَا مَعَكَ" (إر ١ : ١٨ ، ١٩).

وقد يبدو في ذلك تناقض جزئي فهناك نوع من النشوة في الارتفاع نحو هذا التحدي، فنرى إرميا بكل ضعفه مدعواً للوقوف في الثغرة من أجل الرب وفي ذلك الوقت بالذات! وهناك أمور عظيمة على وشك الحدوث ومصائر امبراطوريات صارت معلقة، وها هي يهوذا تخطو نحو عهدها مع الموت، وبينما كانت الممالك تتزعزع تجاسر إرميا أن يقف عمود حديد لله، مضحياً بحياته لكي يجدها، ومنذفعاً نحو الهاوية واثقاً أنه سوف يجد صخرة وعود الله تحت قدميه تحميه وتنقذه. وربما تكون هذه الرسالة صعبة علي مؤمني الكنائس المريحة وقد تكون مألوفة لدى الكنائس المضطهدة مثل أوغندا أو رومانيا، ولكننا علي أية حال نحتاج إليها بشدة.

**قصة مضت أم اختبار حاضر؟**

ربما ننسى بسهولة أثناء قراءتنا لقصة هذه الدعوة أننا نقرأ تقريراً عن اختبار مضي، ولكن لا بد أن نتذكر ما به من إخلاص وعناية ومحبة. وعندما أتى الوقت لتدوين هذه القصة كان قد انقضى وقت طويل منذ حدوثها، وهي كما هي الآن تحمل أصداء من دعوة موسى. مما يرجح أن درجة ما من التشكيل قد حدثت لكي نصل إلي الحقيقة العظيمة بأن إرميا سوف يكون "موسى" رقم ٢.

وما يجب أن نتجنبه تماماً هو أن نعتبر ما حدث مجرد قصة، ولكن ذاكرة هذه المقابلة هي التي سيطرت على بقية حياة إرميا كلها، وأصبحت هي ينبوع الرئيسي الذي طالما عاد إليه كلما نضبت خدمته، وهي المقياس الذي قاس به الأنبياء الآخرين: "يَتَكَلَّمُونَ بِرُؤْيَا قُلُوبِهِمْ (تخيلاتهم) لَا عَنْ فَمِ الرَّبِّ مَنْ أَصْغَى لِكَلِمَتِهِ وَسَمِعَ؟" (إر ٢٣: ١٦، ١٨). واستمر الله يذكره بهذه الدعوة كلما فكر في عصيانها: "إِنْ رَجَعْتَ أَرْجِعْكَ، فَتَقِفْ أَمَامِي. وَإِذَا أَخْرَجْتَ الثَّمِينِ مِنَ الْمَرْذُولِ فَمِثْلَ فَمِي تَكُونُ. هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ" (إر ١٥: ١٩). وهي أيضاً المقابلة التي حاول أن يتبرأ منها عندما دخل الظلمة وحاول أن ينفذ يد الله عن حياته "مَلْعُونُ الْيَوْمِ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ! الْيَوْمِ الَّذِي وَلَدْتَنِي فِيهِ أُمِّي لَا يَكُنْ مُبَارَكًا! مَلْعُونُ الْإِنْسَانِ الَّذِي بَشَّرَ أَبِي قَائِلًا: قَدْ وُلِدَ لَكَ ابْنٌ [مُفْرِحًا إِيَّاهُ فَرِحًا. وَلِيَكُنْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ كَالْمُدْنِ الَّتِي قَلَبَهَا الرَّبُّ وَلَمْ يَنْدَمْ فَيَسْمَعْ صِيَاحًا فِي الصَّبَاحِ وَجَلْبَةً فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ. لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْنِي مِنَ الرَّحِمِ فَكَانَتْ لِي أُمِّي قَبْرِي وَرَحِمُهَا حُبْلَى إِلَيَّ الْأَبَدِ. لِمَاذَا خَرَجْتُ مِنَ الرَّحِمِ لِأَرَى تَعَبًا وَحُزْنَ فَتَفْنَى بِالْحِزْيِ أَيَّامِي؟" (إر ٢٠: ١٤-١٨).

لا نستطيع أن نقول إنها مجرد ذكرى أو قصة، ولكنها اختبار نجد فيه هويتنا ونحدد عليه نوعيتنا، وهو أمر "حيوي" - أي يتعلق بالحياة - أن نعيد ذكر هذه القصص، وكما كان الرجل اليهودي يذكر بين الحين والآخر أنه كان عبداً في مصر ولكن الرب خلّصه، هكذا كان إرميا يقول من حين لآخر: "كنت ولداً ولكن السيد الرب لمس فمي وقلبي"... ذكر أحدهم عن التأثير البالغ الذي تركه في نفسه ذلك التغيير الذي حدث لطفل صغير من عدة سنوات في معسكر تبشيري، وظل ذلك الاختبار ذا تأثير قوي علي فهمه بعد ذلك. وقيل عن "جون نيوتن" ذلك القسيس كاتب الترانيم أنه في نهاية حياته لم يكن قادراً علي ربط جملتين معاً في عظة واحدة، ولكنه قال مرة معترفاً أمام الحاضرين إنه قد نسى ما كان يود أن يقوله لكنه قال: "لا أنسي أنني خاطيء عظيم وأن يسوع مخلص عظيم!". أمّا نحن المؤمنون "الناضجين" الذين نظن في أنفسنا بعض المعرفة، لكن رؤيتنا قد اهتزت وأصبحنا عرضة للشك وفقدنا محبتنا الأولى، فعلينا بالعودة إلي بساطة مقابلتنا الأولى مع الرب يسوع فهي التي تحمل المعنى لحياتنا لأنها قصتها الواقعية، وهنا تعرف نفسك على أساس متين.

## الفصل الثالث

### مطرفة تحطم الصخور

"إِبْهَتِي أَيُّهَا السَّمَاوَاتُ مِنْ هَذَا، وَافْشَعِرِي وَتَحَيَّرِي  
جِدًا، يَقُولُ الرَّبُّ. لِأَنَّ شَعْبِي عَمَلَ شَرِّينَ: تَرَكَونِي أَنَا  
يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَبَارًا، أَبَارًا  
مُشَقَّةً لَا تَضْبُطُ مَاءً" (إر ٢: ١٢، ١٣)

"لأنه منذ القديم كسرت نيرك وقطعت قيودك، وقلت: لا أتعبد. لأنك على كل أكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء أنت اضطجعت زانية! وأنا قد غرستك كرمة سورق، زرع حق كلها. فكيف تحولت لي سرور جفنة غريبة؟ فإنك وإن اغتسلت بنطرون، وأكثرت لنفسيك الأشنان، فقد نقش إثمك أمامي، يقول السيد الرب. كيف تقولين: لم أتجسس. وراء بعلي لم أذهب؟ انظري طريقك في الوادي. اعرفي ما عملت، يا ناقة خفيفة ضبعة في طرقها! يا أتان الفراء، قد تعودت البرية! في شهوة نفسها تستنشق الريح. عند ضبعها من يرذها؟ كل طالبيها لا يعيرون. في شهرها يجدونها" (إر ٢: ٢٠-٢٤).

"هوذا كسحاب يصعد، وكزوبعة مركبته. أسرع من النسور خيله. ويل لنا لأننا قد أخرجنا... طريقك وأعمالك صنعت هذه لك. هذا شرك. فإنه مر، فإنه قد بلغ قلبك" (إر ٤: ١٣، ١٨).  
 "نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية، وإلى السماوات فلا نور لها. نظرت إلى الجبال وإذا هي ترتجف، وكل الأكام تقلقت. نظرت وإذا لا إنسان، وكل طيور السماء هربت. نظرت وإذا البستان برية، وكل مدينها نقضت من وجه الرب، من وجه حمو غضبه" (إر ٤: ٢٣ - ٢٦).

"اسألوا عن السبل القديمة: أين هو الطريق الصالح؟ وسيروا فيه، فتجدوا راحة لنفوسكم" (إر ٦: ١٦).

"قلبي في سقيم... أليس بلسان في جلعاد، أم ليس هناك طبيب؟ فلماذا لم تعصب بنت شعبي؟... يا ليت رأسي ماء، وعيني ينبوع دموع، فأبكي نهارًا وليلاً قتلى بنت شعبي" (إر ٨: ١٨، ٢٢... ٩: ١).

"اسْمَعْنَ أَيَّتُهَا النِّسَاءُ كَلِمَةَ الرَّبِّ، وَلِتَقْبَلْ آذَانُكُنَّ كَلِمَةَ فَمِهِ، وَعَلِمْنَ بَنَاتِكُنَّ الرِّثَايَةَ، وَالْمَرْأَةُ صَاحِبَتَهَا النَّدْبَ! لَأَنَّ الْمَوْتَ طَلَعَ إِلَى كُوَانَا، دَخَلَ قُصُورَنَا لِيَقْطَعَ الْأَطْفَالَ مِنْ خَارِجٍ، وَالشُّبَّانَ مِنَ السَّاحَاتِ" ( إر ٩ : ٢٠ ، ٢١ ).

إن لمحة قصيرة علي مجموعة العظات والأشعار وصيحات الإنذار والنوح والتي تكوّن معاً الأصحاحات الأولى من سفر إرميا لهي كافية أن تعطينا مذاقاً لكرازته الأولى. ومعنى كلمة إرميا بحسب القاموس الانجليزي هو "العظة الطويلة الشاكية". ولا يعسر علينا فهم ذلك لأن إرميا كان ينتقد بقسوة الشعب ويضرب على خطيتهم بكل غيرة وحق، وهو معذور لأنه مسوق ومضطر لذلك. أمّا المستمع العادي فهو لا يسمع إلا شاباً صاخباً، لكن إرميا كان يعلم في نفسه أنه يحمل كلمة الرب وأنها مثل نار في فمه ومثل مطرقة تحطم الصخر. وهكذا وضع إرميا كتفيه تحت نير الله وانحنى له، وكان عليه أن يقف أمام تحليل حياة أهله شارحاً إياها متخذاً جانب العدل لكل جزء في رسالته، وكان عليه أن يركز بها بكل شفقة كما لو كانت موجهة لأناس يموتون، ولكن بوضوح دون تشويه أو تنعيم لحدّها القاطع. وكان عليه أن يكشف خطية الشعب الضاغطة عليه حتى يشعروا بغضب الرب وحزنه وسخطه. وربما آخرون يتنبأون بأمور حسنة لكنه من دون الناس لا يستطيع أن يتصنع في كلامه.

### تحت كل شجرة خضراء:

ربما يجد بعض القراء أن اهتمام إرميا بالخطية هو مجرد شيء تافه، وإذا كان كذلك فإنهم لن يجدوا معنى لرسالته. ولكننا بحاجة أن نقف حيث يقف هو ونرتعد معه وهو يكشف خطية الشعب ذلك لأنه معتقد تماماً أن الخطية كانت في



قلب أمراض يهوذا، وكل محاولة للحل أو إعادة التشكيل هو عمل لا براعة فيه مثل سمكرة سيارة محترقة في الداخل، ذلك لأن الأمر المركزي هو خطية رفض وعصيان الله، وكل ما عدا ذلك عبارة عن زخرفة من الخارج فقط. وبالنسبة لإرميا كانت أقوى صورّ خيانة الشعب واردة من مجال العلاقات الجنسية والسبب في ذلك واضح، لأن عبادة البعل وعشتاروث إله وإلهة الخصب كانت تتضمن ممارسة البغي السري - الذي كانوا يعتبرونه مقدّساً - "لأنّكِ على كلّ أكمةٍ عاليةٍ وتحت كلّ شجرةٍ خضراءٍ أنتِ اضطجعتِ زانيةً!" (إر ٢: ٢٠) إذ كان الرجال والنساء يمارسون ما يسمى بزواج الآلهة وكان هناك سحر عاطفي يجعل قوة الحياة تهزم الموت، وهكذا تدور عجلة الطبيعة العظيمة ويأتي الحصاد ثانية، وهكذا يخلص الناس حسب ما يشيعه كهنة البعل وعشتاروث.

وعندما نقرأ كلام إرميا نشعر بالرعب الذي استشعره إزاء هذا الرفض الشنيع لمحبة الله، ذلك لأن الخطية كانت ولا تزال هي نوع من الزنا. وقد أخرج الرب الشعب من العبودية وعاملها كالعروس، أمّا يهوذا فكانت تتصرف مثل الخائنة، وتصورها إرميا زوجة غير مخلصة كانت تمارس خطيتها تحت كل أكمة عالية ولم تشبعها شهوتها بل جلست علي جانب الطريق تعرض ذاتها غير عالمة بأنهم سوف يتركونها ناضبة ويلقونها بعيداً وقد نسيت خزيها وصارت مثل جمل في الصحراء. وربما يصعب علينا الإحساس بالرعب الذي كان لدى إرميا لاسيما عندما تفقد الطرق التقليدية قوتها في وصف الخطية مثل هذه الأقوال: كسر ناموس الله، وعدم

الوصول إلى المستوى المطلوب، فقدان الهدف... وهكذا تبدو الصور باهتة، ويبقى الخطر العظيم أن نستأنس الخطية ونحتفظ بالحية كأنها قطعة صغيرة أليفة في البيت. وقد نتحدث عن الخطية أحياناً على أنها تأتي في ألوان متعددة مثل القتل والاعتصاب والإباحية، وأحياناً نقدمها كأنها تحذف واجباً دينياً مثل إهمال خدمة في الكنيسة أو الإفراط في أكل الحلوي أثناء الصيام... وهذا بعيد عن الواقع! الخطية هي خيانة المحب الإلهي، وهي خروج عن علاقة شخصية، وهي ازدراء بمحبة الله لنا، وهي عدم الأمانة، وهي الطريق الذي يؤدي إلي تدمير الذات والفشل واللعب مع الله. والمشكلة هي في الطبيعة البشرية الخاطئة وليست في الخطايا الخاصة. ومثل هذا السؤال: ما هي أسوأ خطية؟ فإنما يراد به الانصراف عن الحقيقة. وأذكر عندما كان أولادي صغاراً فقد اعتادوا أن يطلبوا مني أن أجمع لهم كلمات الحلفان التي يمكن أن يسمعوها في المدرسة في قائمة منفصلة، وقد أرادوا أن يعلموا ما هي الكلمات المسموح لهم باستعمالها في البيت دون أذية الآخرين. ولكن التركيز علي الخطية ونسيان القلب الخاطيء الذي يُخرجها هو مثل دراسة البقع الحمراء التي تظهر علي الجلد وإهمال الحصبة التي هي السبب.

وهناك آلاف السبل التي تبعد الله عن عرشه علينا والتي نخون بها رباط الزواج الذي دعانا إليه. وبالنسبة ليهودا فإنهم قد انخرطوا في عبادات كنعان الوثنية أو التعمد في كسر القوانين التي كانت تحكم علاقتهم بإخوتهم الإسرائيليين، أو اللعب بقوة السياسة متجاهلين أن الله قصد لهم أن يكونوا نوراً للأمم. كما أن لنا طرقاً مختلفة لخدمة الآلهة الأخرى

ولكسر الناموس الأدبي تاركين دعوتنا الحقيقية. ولكن يمكن خيانة الصديق بطرق متعددة، ربما بنظرة أو بكلمة أو بإشارة أو بصمت أي بما نفعل أو بما نفشل في أن نفعله. وبمعنى آخر فإن الخطايا الفردية هي مجرد مؤشرات منظورة لما يحدث داخل القلب فالخطايا تشبه أغطية المجاري التي توجد بها فتحات مختلفة الأشكال والأحجام لكنها تؤدي جميعها إلي مجري واحد... دعت إحدى الصحف الوطنية قراءها للاشتراك في مناقشة عنوانها: ما هو الخطأ في العالم؟ فأجاب أحدهم وقال "أنا" ثم وقع يامضائه!

### رياح ساخنة من الصحراء:

الخطية تؤدي إلي الدينونة ولا تذهب بدون عقاب. ومن السهل الاستهانة بذلك وتقديم الله كالزوج الذي حدث الخطأ في حقه والذي سوف يدفع بزوجه لتقاسي نظير فعلتها السيئة، وربما يعتقد البعض أن الدينونة لا تتعدى هذا القول: "آمن بي وإلا فإنني أطرحك بعيداً" لكن مبدأ "أن الخطية تؤدي إلي الدينونة" يحوي أمراً هاماً، ويشرح إرميا التعب الذي سوف يأتي علي يهوذا بهذا الشكل: يا يهوذا "طَرِيقُكَ وَأَعْمَالُكَ صَنَعَتْ هَذِهِ لَكَ. هَذَا شَرُّكَ. فَإِنَّهُ مُرٌّ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ قَلْبُكَ" (إر ٤: ١٨). ماذا يعني إرميا بأن يهوذا قد صنعت الألم لنفسها؟ وربما نستطيع أن نتبع سلسلة السبب والنتيجة كما يلي: حيث إن يهوذا تهاونت مع الأمم الأخرى فقد صارت تقبل آلهتها، وهذا الولاء المنقسم شوّه صورة يهوه لهم وكذلك رؤيتها عن نعمته، ومن ثم بدأت تعيش بموجب هذه الصورة الجديدة عن الله بمعنى أن فكرة العهد القديم عنهم كشعب واحد مقدّس من إخوة وأخوات كانت تتقوض سراً. وانقسمت الأمة إلي غني وفقير، وظهرت لهم أحلام النجاح

العسكري والانفراد بالقوة وقادهم ذلك إلى ما لا طائل تحته، وفي الوقت ذاته بزغت قوة مصر وأشور وبابل لمحاولة الانتقام. وهكذا نستطيع أن نرى ذات الأمر يعمل في أيامنا الحالية، فالغيرة والحسد ليسا فقط من الخطايا ولكنهما يحملان معهما دينونتهما وذلك بإفساد مظهر الشخص. ومَنْ يعمل كالطائش كل أيام الأسبوع لا بد أن يصاب بأمراض القلق. ومَنْ يبني حياته لاهتاً وراء المال فذلك خطية ولعنة. وإذا رفضت الصديق الذي يتكلم بالحق فأنت في خطر أن تلتقي بالتملق الذليل الذي سوف يخبرك دائماً بما تريد أن تسمعه فقط. وإذا خنت الثقة فأنت تدمر شيئاً معيناً، وإذا كنت دائماً في ريبة وشك فإنك تصعب الأمور علي نفسك فلا تعود منفتحاً أو قابلاً للثقة، وفي النهاية تكون أنت هو الخاسر أي "المعاقب" بهذا الشيء. ولا أريد تضخيم هذه النقطة كما لا أقترح بأن العكس الصحيح، لأن الواضح بأن اللوم لا يوجه عادة إلى الناموس عندما تسوء الأحوال معهم، لكن إرميا كان يكشف بأمانة كل ما تضمنه رباط العهد، فعندما صنع الله عهده مع إسرائيل في سيناء وعد بالبركات للذين يعيشون في طرقه وباللعنات للذين يرفضون.

وحيث إن الله هو خالق الكون فطريقه هو الطريق الملائم لحياة المخلوق، وهو الخطة الكاملة لحياتنا نحو الإنجاز والرضا وكل شيء، أي السبب الذي من أجله خُلقنا. وإن كانت الآلات الجديدة تأتي إلينا بوعد أنها سوف تقدم لنا خدمة أفضل، لكن هذا الوعد له شرط هو وجوب اتباع تعليمات المصنع، وسوف تحدث "الدينونة" - العقاب - إذاً خالفنا ذلك فوراً أو تتعطل الآلة. ولا بد أن ترى الدينونة بهذه الصورة، لأن ما يفعله الله هو نتيجة اختيارنا فلم نعد أطفالاً بل أناساً

مستولين، وهذه الحقيقة تعطينا نوعاً من الوقار. وهكذا تنبأ إرميا بأن "عدواً من الشمال" سوف يزحف إلي فلسطين. ولم يمضِ وقت طويل حتى اتضح أنه من بابل، وكان نبوخذ نصر هو تجسيد لدينونة يهوه، وهو "رِيحٌ لَافِحَةٌ مِّنَ الْهَٰبِطِ" (إر ٤: ١١) "قَدْ صَعِدَ الْأَسَدُ مِنْ غَابَتِهِ" (إر ٤: ٧) وسوف تُدمر الأرض وتهلك المدن ويُذبح الناس أو يؤخذون إلى السبي. وكان ذلك هو كأس غضب الله والسم الذي سوف يتجرعه كل واحد.

### ينبوع دموع:

بعدما ارتفع مستوى بلاغة إرميا صار سهلاً أن نصفه بأنه كارز آخر بنار جهنم، ولكن هذا ليس عدلاً سواء له أو للإله الذي يتحدث باسمه، فالدينونة ليست هي الأمر الذي يتمتع به الله وما نجده في كرازته هو خليط قلبي من الأسى والحيرة والفشل: "يَا لَيْتَ رَأْسِي مَاءٌ، وَعَيْنَيَّ يَنْبُوعُ دُمُوعٍ، فَأَبْكِي نَهَارًا وَلَيْلاً قَتَلِي بِنْتِ شَعْبِي"، "مَنْ مَفْرَجٌ عَنِّي الْحُزْنَ؟ قَلْبِي فِي سَقِيمٍ" "أَحْشَائِي، أَحْشَائِي! تُوجِعُنِي جُدْرَانُ قَلْبِي. يَتْنُ فِي قَلْبِي" (١: ٩، ٨: ١٨، ٤: ١٩). وفي رؤيا حافلة بذكرى واقعة انفجار نووي رأى إرميا العالم يعود إلي الفوضى قبل الخليقة، فالأرض خربة وخالية والسماء مظلمة وقاسية والجبال والتلال ترتجف، ولا يظهر كائن بشري في الرؤيا بل لمحة مثيرة ومرعبة أن "وَكُلُّ طُيُورِ السَّمَاءِ هَرَبَتْ" (٤: ٢٥). ويبدو كأن الله يطوي الخليقة للخلف ويعود بها إلى بدايتها الخاوية، ويسقط كل شيء ويتقدم الليل البهيم، لكن إرميا لا يشعر بالرضا لما رآه، وكل ما نجده هو النوح: "وَأَنْتِ أَيْتُهُمَا الْخَرْبَةُ (أورشليم) مَاذَا تَعْمَلِينَ؟ إِذَا لَيْسَتْ قِرْمِزًا" (٤: ٣٠).

إن كل مَنْ يريد أن يتحدث بحق وإنذار كلمة الله عليه أن يتحدث بأسّي، وكان إرميا متحدّاً مع الله في كل هذا، فلم يُسر بالدينونة لأنها تكسر قلب الله. ونستطيع أن نسمع حيرة الله الذي يتأمل في الشعب الذي يترك الينبوع الحي لينقر لنفسه آباراً لا تضبط ماء. وكانت يهوذا هي عروس يهوه وهي ابنته وبكره والكرمة المختارة والامتلاك المقدّس ورعية الله. وهنا نشعر بإحساس الرفض عندما يقول الله: "إِيَّاي لَمْ يَعْرِفُوا" (٤: ٢٢) ولم يدعوهُ أباً لهم، ثم يقول: "لَيْلًا أَجَعَلَكِ خَرَابًا، أَرْضًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ" (٦: ٨). وهذا يذكرنا بمناحة الرب يسوع علي أورشليم هكذا: "يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا، كَمْ مَرَّةً أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلَادِكَ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةَ فِرَاحَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا" (مت ٢٣: ٣٧). إننا عندما نأخذ على عاتقنا أن نتكلم عن الخطية والدينونة فإننا نحتاج أن نتذكر كلمات "إسحق واتس" الذي قال "انظر إلي الأسى والحب اللذين يتدفقان معاً من رأسه ويديه وقدميه..".

### قف علي الطرق (السليمة):

في قصة للأطفال وقفت لوسي تقول لبروان: هناك شيء واحد يجب أن نتعلمه وهو أنك تحصد ما قد زرعت، وسوف تحصد من الحياة تماماً بالقدر الذي وضعت به فيها لا أكثر ولا أقل! ولكن وقف هناك آخر وقال في نفسه: ألا يوجد مجال للخطأ؟! وهل هناك مجال للخطأ مع الله؟ وهل يمكن أن نسأل هكذا من فضلك هل يمكن أن نبدأ من جديد؟.

إن الدينونة ليست عملية مجردة أو ميكانيكية فتلقي بالخطاة دون الإنصات إليهم مثل الآلة الحاسبة التي ترسل لك فاتورة ما، لكن كرازة إرميا كانت فيها إمكانية التوبة تجري بين كلماتها مثل الخيط القرمزي. وبالطبع من جانب ما كان الوقت مناسباً لذلك، فالإصلاح كان في الجو العام حيث أن يوشيا كان قد بدأ محاولة في إرجاع الأمة بالقوة إلى الرب، وقد تنبأ إرميا إبان تلك الفترة، وللغرابة فإنه لم يذكر شيئاً عما كان يجري آنذاك، وربما شاهد بكل وضوح مخاطر النظافة الخارجية دون تغيير القلب. التوبة الحقيقية تعني شيئاً مختلفاً، وهي الأخبار السارة، والماضي لا يحدد المستقبل، والأمور تتغير، وما كنا عليه ليس بالضرورة سوف يكون مستقبلاً. وربما نتعد عن الرب ولكن بنعمته يمكن العودة إليه ثانية. وكان الاختيار لا يزال مقدماً إلى يهوذا مهما كان ظلام الرسالة التي كرز بها إرميا. وفي مثال من الحياة، وكما يستطيع الفخاري أن يعيد عمل الوعاء الذي فسد طالما أن العجين مازال طرياً هكذا يستطيع أن يفعل شيئاً من الشعب التائب (إر ١٨ : ١ - ١٢).

لقد صاح الرب قائلاً: "قِفُوا عَلَى الطَّرْقِ وَاَنْظُرُوا، وَاسْأَلُوا عَنِ السَّبِيلِ الْقَدِيمَةِ: أَيْنَ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّالِحُ؟ وَسِيرُوا فِيهِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ" (٦ : ١٦). وهذه الحقيقة تحتاج للتعاقد بواسطة حقيقة أخرى، ومع وجود مقدمة الغفران نستطيع أن نلمح خوف النبي من أن الشعب يكون قد ابتعد جداً لدرجة عدم رغبتهم في التوبة، فقد صلّبوا رقابهم ولما دعاهم الله إلى السبل القديمة قالوا: "لَا نَسِيرُ فِيهِ... لَا نَصْغَى" (٦ : ١٦)، (١٧).

هذا بالرغم من أن إرميا كان قد استشعر في بداية خدمته أنهم سوف لا يغيروا سبل حياتهم مثل الكوشي الذي لا يغير جلده ولا النمر الذي يغير من رقطه. وقد كان أميناً للغاية حتى لا يدرك هذه الحقيقة الأكثر قتامة كما كان في أتم المسؤولية حتى لا يعلنها. ونحن نحتاج كذلك إلى التمسك بكلتا الحقيقتين، والحقيقة المبهجة هي أن الله يستطيع أن يغيرنا مهما كان ماضيها ولكن وبنفس القدر لا يمكن إهمال كلمة الدعوة لأجل غير محدود. والنعمة ليست رخيصة، والكتاب مليء بالناس الذين عرفوا الله ولكنهم بسبب عدم الطاعة فقدوا البركات والفرص، وكل خطوة تنحدر بنا إلى المسلك الخاطيء تبعدنا أكثر عن الطريق السليمة حتى تصل بنا إلى نقطة بعيدة تماماً عن البيت حيث لا نستطيع أن نسمع الصوت الذي يدعونا للرجوع مرة أخرى.

## الفصل الرابع

### الأكذوبة الكبرى

"لَا تَتَكَلَّمُوا عَلَى كَلَامِ الْكُذِبِ قَائِلِينَ: هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ! لَأَنَّكُمْ إِنِ اصْلَحْتُمْ إِصْلَاحًا طُرُقَكُمْ فَإِنِّي أَسْكِنُكُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فِي الْأَرْضِ. . . لَكِنْ اذْهَبُوا إِلَى مَوْضِعِي الَّذِي فِي شَيْلُوهَ الَّذِي أَسْكَنْتُ فِيهِ اسْمِي أَوَّلًا، وَانظُرُوا مَا صَنَعْتُ بِهِ مِنْ أَجْلِ شَرِّ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. أَصْنَعُ بِالْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ الَّذِي أَنْتُمْ مُتَكَلِّمُونَ عَلَيْهِ، وَبِالْمَوْضِعِ الَّذِي أَعْطَيْتُكُمْ وَأَبَاءَكُمْ إِيَّاهُ، كَمَا صَنَعْتُ بِشَيْلُوهَ.. " (إر ٧: ١ -



"وَكَانَ لَمَّا فَرَغَ إِرْمِيَا مِنَ التَّكْلِيمِ بِكُلِّ مَا أَوْصَاهُ الرَّبُّ أَنْ يُكَلِّمَ كُلَّ الشَّعْبِ بِهِ، أَنَّ الْكَهَنَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَكُلَّ الشَّعْبِ أَمْسَكُوهُ قَائِلِينَ: تَمُوتُ مَوْتًا.... وَلَكِنَّ يَدَ أَخِيْقَامَ بْنِ شَافَانَ كَانَتْ مَعَ إِرْمِيَا حَتَّى لَا يُدْفَعَ لِيَدِ الشَّعْبِ لِيَقْتُلُوهُ" (إر ٢٦: ٧-٩، ٢٤).

إن المشكلة مع التدين هي أنها تهدد باستمرار بنوع معين من الحياة الذاتية وتبدو أحياناً مثل المباراة المحكمة بما لها من قوانين خاصة ومبادئ فنية غامضة. أمّا القوانين الكنسية فليست أشياء يمكن تخيلها، وكذلك لا يظهر "الأنبياء" في كشوف الميزانية، و"الخدمات" لا دخل لها بطرق المواصلات. وأتذكر أنني كتبت منذ سنوات إلى أحد الموردين عن بعض البنود وكان رده إليّ يحمل هذا المعنى: لقد زادت الأسعار عن الوقت الذي راسلتنا فيه! وربما تحتاج أن تتعلم لغة خاصة عندما تعمل من أجل الكنيسة. وأحياناً يبدو ذلك مثل الصناعة وما يستجد فيها، فهي تقدم خدمات وتوظف أناساً وتسوّق منتجات وتحاول أن تحصل على ربح. وقد يستلزم ذلك تأدية معينة، وسواء كان قداساً باباويّاً في ميدان القديس بطرس أمام ربع مليون شخص أو في اجتماع ناهض في كنيسة ما فهناك احتمال وجود ألوان، أصوات وموسيقا ومستوى عالٍ من المشاعر التي تهاجم الأحاسيس بأسلوب بهيج مما يجعلك تشعر وكأنك تشاهد عملاً أدبياً عظيماً... ولسوء الحظ فإنه عندما يتخذ التدين أسلوبه الخاص في الحياة فإنه يثير مشاكل كبرى.

وربما ما حدث في أمر الكفالة التجارية للرياضة يعطينا مثلاً مشابهاً، وأصبح الاهتمام بتعريف عامة الناس بالمنتج الجديد أهم بكثير من المباراة أو السياق في حد ذاته، وربما تلاحظ أن المباراة لا تبدأ ثانية إلا بعد الانتهاء من الدعاية. ومتى

طغى التدينّ فإنه يعوق أكثر مما يساعد، كما تقول المقولة القديمة: "إن التدينّ هو أعظم عدو للمسيحية" ولعل أشد الانتقادات لم تأت من صفوف الملحدين بل من داخل التدينّ ذاته. وهؤلاء هم الذين شاهدوا بوضوح كيف يقفون في خطر وكيف يكون الحل. لكن ماذا بالنسبة للجموع التي تدفقت نحو الهيكل قاصدين عبادة يهوه؟ لقد أتوا لكي يحتفلوا باختيار الله لإسرائيل شعباً خاصاً له ولصهيون مكاناً خاصاً. وكان يوشيا ذلك الملك الصالح قد أجرى إصلاحاً عاماً وقد ناحوا عليه بعد موته في المعركة، وكان التطهير واسعاً ومؤثراً، وبعده جلس ابنه يهوياقيم على العرش وبشيء من الحظ سوف يكتشفون سريعاً أن الله في السماء وكل شيء على ما يرام في العالم. وفي يوم ما وقف إرميا مبكراً ربما عند البوابة التي تفصل الدار الخارجية، وربما كانت الجموع القادمة للعبادة سوف لا تلتفت إليه، وربما كان الشيوخ والأنبياء في وسطهم يرتمون ترنيمة الدخول التي تذكرهم بالمؤهلات القديمة لمن يتقدمون إلي الهيكل هكذا: "يَا رَبُّ، مَنْ يَنْزِلُ فِي مَسْكِنِكَ؟ مَنْ يَسْكُنُ فِي جَبَلِ قُدْسِكَ؟ السَّالِكُ بِالْكَمَالِ، وَالْعَامِلُ الْحَقَّ، وَالْمُتَكَلِّمُ بِالصِّدْقِ فِي قَلْبِهِ" (مز ١٥ : ١ ، ٢). "مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ؟ وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ؟ الطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ، وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ، الَّذِي لَمْ يَحْمِلْ نَفْسَهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا حَلَفَ كَذِبًا" (مز ٢٤ : ٣ ، ٤). كان صباح ذلك اليوم مختلفاً وبدلاً من ترنيمة الدخول كان إرميا في قمة غليانه، وسوف تبقى عظته في ذلك اليوم واحد من أهم ما يهاجم العبادة المنظمة في الكتاب المقدّس، ولا عجب إذن أن حياته كانت في خطر ولكنه نجا بصعوبة.

**الله في صندوق:**

إن ديانة الهيكل جعلت الله مفهوماً للعامّة، لكنها قيدته في صندوق يمكن الاتكال عليه لكي يفعل كما يقال له، ولقد قال الشعب: "قَدْ أُنْقِذْنَا" - أي نحن سالمون - (٧: ١٠) لأن هذا هو هيكل الرب، ولا ضرر علينا طالما هذا الهيكل قائم والرب مرتبط ببيته "هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ!" (٧: ٤). والواقع إن مثل هذا الكلام إنما يحجّر الله ويقيده في الطريقة التي عمل بها في الماضي دون السؤال عما إذا كان سوف يتصرف باختلاف في المستقبل، أو باعتبار آخر كأنما الناس قد حاولوا سلب الله حرّيته.

### ولكن كيف يحدث مثل ذلك؟

بسبب معجزة، ففي عام ٧٠١ ق.م أي منذ حوالي مائة عام مضى نزل سنحاريب ملك آشور على فلسطين ودمّر المنطقة ثم جاءت اللحظة التي عسكر فيها خارج أورشليم نفسها. وبالمصادفة السعيدة فإننا نمتلك مذكرات تلك الفترة من حياته العسكرية حيث كتب بنفسه: "إني قد قفلت على حزقيا ملك يهوذا كالطائر داخل القفص"، وقد كان ينتظر في يومياته أن يدخل ويتعامل مع الأوز بعد طهيها، لكن ذلك الوقت لم يأت قط!

أمّا النبي إشعيا وهو غير معروف بالنسبة لسنحاريب فقد حث حزقيا على الوقوف بثبات في الله وقال: "بِالْهُدُوءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ" (إش ٣٠: ١٥)، وقد عمل حزقيا بنصيحة النبي وتصرف الشعب وآمن بما كان يرنمه في المزامير، وبعد قليل قام سكان المدينة بعد شعورهم باليأس وتطلعوا نحو الجيش الأشوري وإذا هو غير موجود... أمّا سبب التراجع السريع فيظل سراً مدهشاً.. طاعون؟ لقد كانت هناك جثث كافية لهذا الظن، أو مظاهرات لمجموعة ما

للعودة إلي الوطن؟ ومهما كان الأمر فإن الجميع يتفقون بأن السيد الرب قد تدخل وحدثت معجزة عظيمة. ولكن للأسف نما اعتقاد خاطيء عظيم بعد هذه الحادثة، فالله الذي أنقذ أورشليم سوف ينقذها أيضاً! وحيث إننا نعيش في أورشليم فنحن سالمون، وهكذا أصبحت حصانة أورشليم عقيدة ثابتة، وهذه عملية مرعبة يخضعها الناس لحساباتهم وكأنهم قد صنعوا قانوناً لله. لكن إرميا اختصر الطريق إلى مثل هذا التفكير وقال: "لَكِنْ اذْهَبُوا إِلَى مَوْضِعِي الَّذِي فِي شَيْلُوهَ" (٧: ١٢)، وقد حدث في تاريخ الشعب في فلسطين أن كان هناك مقدس في شيلوه، وقال الرب عنه "الَّذِي أَسْكَنْتُ فِيهِ اسْمِي أَوَّلًا" وقد حوى تابوت العهد، فكان هو المكان المقدس.. ولكن الآن؟ اذهبوا إلي شيلوه وتأملوا الخراب... وليس هناك سوى الطيور والحيوانات البرية، بعدما دمر الفلسطينيون المكان المقدس، ومع ذلك فقد ظن الناس في ذلك الوقت أنهم قد أغلقوا على الله في تابوت العهد وظنوا أنه هو السلاح السري الذي يضمن لهم الانتصار في كل مرة يخرج التابوت معهم... وهكذا كلما استمر إرميا في الكلام اتضحت المفارقة بين الأمرين بصورة أكمل. وقصة هذين الهيكلين تقودنا إلي حقيقة حيوية ألا وهي أن الله ليس في "جيب" أحد كما أنه ليس مرتبطاً بالماضي، لكنه حُر وقادر على كل شيء.

وهذا درس يصعب أن يتعلمه الفرد أو الكنيسة أو أية طائفة، وقد يتدفق روح الله من خلال مجموعة أو شعب أو شخص ويتبع ذلك بركة وقوة يبدو كأنهما لن ينقطعا أبداً، ويعتقدون - وهنا الخطر - أنه لا بد من الاستمرار إلى الأبد. ولكن الله غير مرتبط بما فعل في الماضي، والريح تهب حيث تشاء. وهناك

أكثر من مذهب قد بدأ بحركة من الروح القدس لكنه تضاءل إلي مؤسسة منتظمة، وهناك أكثر من شخص لا يزالون يكررون البركات القديمة أو يتظاهرون بها... ولعلك تستطيع اليوم أن تزور شيلوه متأملاً الخرابات القديمة وربما ترشدك لاسيما عندما يرحل عنا مجد الله...

زار أحد أصدقائي جاره في منزله ورأى هناك كتابة بالمداد الأحمر على المرأة تقول: (العشاء في هذا المنزل الساعة السادسة مساء بالضبط!!) وواضح أن الزوجة قد شعرت بأنها تُعامل كما لو أنها تعمل ٢٤ ساعة يومياً وكأن ذلك أمر واقع. وربما نتعامل مع الله بنفس الصورة. وهل يعني ذلك أنه ليس أميناً؟ كلا بالطبع، لكننا لا نتوقعه ضعيفاً. وهل يمكن الاعتماد عليه؟ نعم بالطبع، لكننا لا نتوقع أن نفرض عليه شيئاً.

### مهد أم طفل؟

كان يهوذا يمتلك الله في صندوق - تابوت - وكان من تأثير ذلك أن الشعب بدأ يضع ثقته في التابوت وليس في إلههم. وهذا هو أسلوب التدين الذي يزحزح مصدر الأمان من الخالق إلى شيء مخلوق ومن شخص إلى شيء ملموس. وقد تمثل الأمان الكاذب للشعب آنذاك في قولهم المتكرر: "هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ!" (٧: ٤) والذي أصبح ترنيمة رتيبة بلا معنى وربما كما يظن البعض تعويذة سحرية. الثقة في الخرافة لا تعطي أماناً على الإطلاق... ومن التأثيرات غير المستحبة عند تشريع حزام الأمان في السيارات كان أن بعض أصحاب السيارات يقودون سياراتهم كالمجانين ويعتقدون أنهم لن يصابوا بأذى في الحوادث... وكذلك فإن وثيقة الزواج لا تضمن اتحاد طرفين معاً إذا عزمنا على تحطيم ما بينهما من محبة. ثم فكر في الأشياء التي

تستعملها مرة واحدة... ولاشك أن هذه الأشياء تعطي راحة كبرى، إلا أن الشعور بالأمان الذي تعطيه لنا مثل هذه الأشياء ليس مضموناً أبداً وربما يقوم على الخداع.

وهذا لا ينكر أن الأماكن والأشياء والأفعال والكلمات يمكن أن تجسد حقيقة أو تعبر عن علاقة. أعرف كاهناً كان دائماً يبدأ خدمة المعمودية بعد أن يخرج الترمومتر ليتأكد من دفء الماء ثم يقول: "لا يوجد أي نوع من السحر هنا..." ولعلي أفهم ما يقصده، وقد كنت أفتن بجرن المعمودية بتلك الكنيسة (في كوفنتري) بانجلترا وقد نُحت أصلاً من تلال أعلى مدينة أورشليم، وأرجو أن لا يظن أحد بأن المكان الجغرافي سوف يمنح عمراً أطول للأطفال المسيحيين الذين يعتمدون فيه. وربما كما أعتقد أن الأمر واضح ولكني أتمسك بهذا القول: "إن السبب الوحيد الذي يذهب بي إلى المهد هو أن أرى الطفل الرب يسوع" ونحن لا نجد أماناً في اقتناء الكتاب المقدس بل في شخص المسيح. ونحن نقرأ الكتاب المقدس لكي نتعرف أكثر على الرب يسوع.

ونذهب إلى الكنيسة أو نحضر الاجتماعات ونقرأ الكتب المسيحية ونقوم بهذه الدراسات الكتابية المطولة، والصلاة التي قد تمتد إلى نصف الليل وفترات العبادة التي تستغرق ساعتين أو أكثر، ولكن كل هذه الوسائط والممارسات لا قيمة لها ما لم تكن قنوات لمعرفة الله وحتى يصبح الله في مركز حياتنا، وإلا فهي نوع من التمثيل الصامت الديني. اعترف لي صديق أن قائمة صلواته قد انحدرت إلى قائمة مشتريات، وقد كان يصلحها بحماس مصحوباً بوهم أنه بمجرد الانتهاء من القائمة سوف يضمن الفوز بالجائزة، وقد نسى تماماً أنه قد خلق أساساً لكي يعرف الله وليس لكي يحطم

العالم وسجلات الأولمبياد في أطول صلاة... قال أحد المفسرين إن التدين يجب أن يموت لكي نفسح الطريق لله الحي. إن الرسالة الحية في موعظة إرميا هي أنه في بعض الأحيان قد تجد ثنية في مياه بابل ما قد فقدته سابقاً في الهيكل.

## صلاة أم تصيد؟

كانت صناعة الدين منتعشة وامتلات ساحات الهيكل وكثرت مظاهر التقوى، إلا أن الإيمان المستقيم كان منفصلاً عن السلوك المستقيم، وأصبح العدل والمعاملة المعتدلة من الأمور النادرة: "أَسْرِقُونَ وَتَقْتُلُونَ وَتَزْنُونَ وَتَحْلِفُونَ كَذِبًا وَتُبَخِّرُونَ لِلْبَعْلِ، وَتَسِيرُونَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا، ثُمَّ تَأْتُونَ وَتَقِفُونَ أَمَامِي فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ وَتَقُولُونَ: قَدْ أَنْقَذْنَا. حَتَّى تَعْمَلُوا كُلَّ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟" (٧: ٩، ١٠). ومن يا ترى كان في أشد الخطر؟ إنهم الشعب الذي يقال عنهم "هوامش المجتمع" مثل الغريب الذي يترك وطنه، واليتيم والأرملة وليس لهم من يقف بجانبهم، والإنسان الذي ليس له أصدقاء في المراكز العالية حتى يمنعوا الحكم عليه بالقتل. وهكذا أصبح القفز نحو الدوائر الدينية أهم من حفظ الوصايا الأساسية. أمّا بالنسبة لله، فإن التدين لم يكن بديلاً عن الأخلاق وبحسب الناموس القديم كان من يقتل آخر يستطيع أن يركض نحو المقدس في إحدى مدن الملجأ حيث يكون آمناً هناك.

وقد تعامل شعب يهوذا مع أورشليم بهذه الصورة، وكانهم أبرياء الله الصغار الذين يركضون إلى الهيكل طلباً للنجاة وحيث لا يستطيع أي وثني أن يلمسهم هناك، وقد كشف إرميا لهم أن هذه مجرد ترضية لا معنى لها، فالهيكل ليس

مدينة ملجأ بل جعلوه "مَغَارَةَ لُصُوصٍ" (٧: ١١) ومن ثم صار المكان الذي يتوارى فيه المذنب حتى يهرب من القبض عليه... ولأن التدين يتخذ نوعاً خاصاً من الحياة الذاتية لذلك فربما تكون تقياً ولكن بدون قلب في الوقت ذاته. وعلى سبيل المثال فإن المؤمنين - سواء قبلوا ذلك أم لا - يجب أن يتمثلوا بالرب يسوع ويكون اهتمامهم بكل الذين على هامش المجتمع ويجب أن يعكسوا تحيز الرب نحو الفقراء والمنبوذين والمتروكين، ولكننا للأسف لا نجد ذلك عملياً. وقام إرميا بتوضيح فكر الله تجاه ذلك النوع من السلوك لا سيما بخصوص مسألة الذبائح فقال: "ضُمُّوا مَحْرَقَاتِكُمْ إِلَى ذَبَائِحِكُمْ وَكُلُّوا لَحْمًا" (٧: ٢١).

### ضمان الرهان:

عندما تبتعد محبة الله الكاملة عن المركز يسهل إذن أن يصبح التدين سياسية أخرى من الأمان. وعلي مبدأ أن القليل جداً ربما ينفع قام الشعب آنذاك بأعمال مختلفة معاً، وقد ذكر إرميا في الأعداد التالية العبادة للشمس والقمر والنجوم وتماثيل البعل في الهيكل ذاته، ثم اشترك كل العائلة بجميع أعمارها في عبادة ملكة السموات: "الْأَبْنَاءُ يَلْتَقِطُونَ حَطَبًا، وَالْآبَاءُ يُوقِدُونَ النَّارَ، وَالنِّسَاءُ يَعْجِنُ الْعَجِينَ، لِيَصْنَعْنَ كَعْكًَا" (٧: ١٨) ثم ممارسة حرق البنين والبنات بالنار كذبائح "وَبَنُوا مُرْتَفَعَاتٍ تُوقَفُ فِي وَادِي ابْنِ هِنُّومَ لِيُحْرِقُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ بِالنَّارِ الَّذِي لَمْ أَمُرْ بِهِ وَلَا صَعِدَ عَلَيَّ قَلْبِي" (٧: ٣١). وبما أن كل قليل يمكن أن ينفع فإن يهوه سوف يساعدنا لأنه لا ضرر في ما نفعل، والمثل يقول أن لا نضع كل البيض في سلة واحدة، فلا بد أن نعطي هذه الآلهة الأخرى فرصة مماثلة فربما يكون لديها ما تقدمه لنا. هذا هو



الصوت المعقول الجامد الذي يقف على الفهم العام، وهو أيضاً الصوت المنذر بنهاية التكريس الحقيقي لله، ذلك لأن الله لا يمكن أن نعامله كما نتعامل مع الآخرين، وكانت إسرائيل تعلم ذلك في صميمها: "الرَّبَّ إِلَهَكَ إِلَهًا غَيْرًا" (خر ٢٠: ٥) فكيف إذن حدث هذا التلوث للإيمان الحقيقي؟ يبدو أن إصلاحات يوشيا كانت سطحية، وربما اساءوا تفسيرها بالاتجاه إلى التدين أكثر منه الرجوع إلى الله، وربما لم تؤثر هذه الإصلاحات على رجل الشارع العادي، أو ربما عملت حسناً لوقت قصير ثم أهملت كما لو أنها موضحة العام الماضي، أو ربما كان المفهوم بأن مَنْ يفعل ذات الأمر هو القوي، أو ربما كان يسهل تغيير النظام أكثر من تغيير القلب. مهما كان السبب فلا نزن بأننا أفضل، والمؤمنون ليست لديهم مناعة ضد تجربة عبادة آلهة أخرى بالإضافة إلى الإله الحقيقي. ومن مخاطر التدين أننا نستطيع إقامة مذابح مختلفة جداً دون معرفة ذلك، وقد ندعوها "النمو" أو "استخدام المواهب" أو "الوكالة الصالحة" أو "الغيرة" ولكنها تخفي تحتها الخداعات القديمة مثل "الطموح" "إظهار الذات" "الراحة" "الانغماس في العمل" وبالرغم من ذلك فإن الله يعرف، وأحياناً نشك نحن بأن مركز حياتنا وبؤرة تكريسنا قد انحرفا. وعندما خاطب الرب يسوع المسيح المؤمنين في كنيسة أفسس امتدح إنجازاتهم واحتمالهم للاضطهاد واهتمامهم بالحق، لكنه اختتم بقوله: "لَكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ أَنْتَ تَرَكْتَ مَحَبَّتَكَ الْأُولَى" (رؤ ٢: ١-٤).

لم يكن القصد أبداً أن يكون الهيكل مجرد علامة، كما لم يشيّد لينتج نوعاً من الديانة. كانت هناك غرفة خالية في وسطه وهي أقدس مكان، وكان ذلك إشارة مناسبة لحقيقة

أن إسرائيل لم يكن لها قلب ولا مركز لحياتها ما لم يملأ الله هذه الغرفة بحضوره. وهكذا أيضاً مع المؤمنين مهما كان نشاطه الديني أو تقواه، وإنما بدون تكريس شخصي للرب يسوع فنحن خارج المركز الروحي، وربما نحن لا نلاحظ هذا لكن بقية العالم يلاحظون، فالإحساس بالتمثيل أو بحياة كاذبة سوف يصبح من الأمور المنفرة حولنا، والناس يفضلون باستمرار حياة القداسة والأمانة.

## الفصل الخامس

### أمضى من السيف

"خُذْ لِنَفْسِكَ دَرَجَ سِيفٍ، وَاكْتُبْ فِيهِ كُلَّ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمْتُكَ بِهِ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَعَلَى يَهُودًا وَعَلَى كُلِّ الشُّعُوبِ، مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي كَلَّمْتُكَ فِيهِ، مِنْ أَيَّامِ يُوَشْيَا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. لَعَلَّ بَيْتَ يَهُودًا يَسْمَعُونَ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي أَنَا مُفَكِّرٌ أَنْ أَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَيَرْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيِّ، فَأَغْفِرَ ذَنْبَهُمْ وَخَطِيئَتَهُمْ. فَدَعَا إِرْمِيَا بَارُوخَ بْنَ نِيرِيَا، فَكَتَبَ بَارُوخُ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا كُلَّ كَلَامِ الرَّبِّ الَّذِي كَلَّمَهُ بِهِ فِي دَرَجِ السِّيفِ. وَأَوْصَى إِرْمِيَا بَارُوخَ قَائِلًا: «أَنَا مَحْبُوسٌ لَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْخُلَ بَيْتَ الرَّبِّ. فَادْخُلْ أَنْتَ وَاقْرَأْ فِي الدَّرَجِ الَّذِي كَتَبْتَ عَنْ فَمِي كُلَّ كَلَامِ الرَّبِّ فِي آذَانِ الشَّعْبِ، فِي بَيْتِ الرَّبِّ فِي يَوْمِ الصَّوْمِ، وَاقْرَأْهُ أَيْضًا فِي آذَانِ كُلِّ يَهُودًا" (إر ٦: ١-٦)

ثُمَّ دَخَلُوا (الرُّؤَسَاءُ) إِلَى الْمَلِكِ إِلَى الدَّارِ، وَأَوْدَعُوا الدَّرَجَ فِي مِخْدَعِ الْبِشَامَاعِ الْكَاتِبِ، وَأَخْبَرُوا فِي آذَنِي الْمَلِكِ بِكُلِّ الْكَلَامِ. فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ يَهُودِيَّ لِيَأْخُذَ الدَّرَجَ، فَأَخَذَهُ مِنْ مِخْدَعِ الْبِشَامَاعِ الْكَاتِبِ، وَقَرَأَهُ يَهُودِيَّ فِي آذَنِي الْمَلِكِ، وَفِي آذَانِ كُلِّ الرُّؤَسَاءِ الْوَاقِفِينَ لَدَى الْمَلِكِ. وَكَانَ الْمَلِكُ جَالِسًا فِي

بَيْتِ الشَّيْتَاءِ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ، وَالكَائُونَ قُدَّامَهُ مُتَّقِدًا. وَكَانَ لَمَّا قَرَأَ يَهُودِيٌّ ثَلَاثَةَ شُطُورٍ أَوْ أَرْبَعَةً أَنَّهُ شَقَّهٗ بِمِبرَاةِ الْكَاتِبِ، وَأَلْقَاهُ إِلَى النَّارِ الَّتِي فِي الْكَائُونَ، حَتَّى فَنِيَ كُلُّ الدَّرَجِ فِي النَّارِ الَّتِي فِي الْكَائُونَ. وَلَمْ يَخَفِ الْمَلِكُ وَلَا كُلُّ عَبِيدِهِ السَّامِعِينَ كُلَّ هَذَا الْكَلَامِ، وَلَا شَقَّقُوا ثِيَابَهُمْ. وَلَكِنَّ النَّاتَانَ وَدَلَايَا وَجَمْرِيَا تَرَجَّوْا الْمَلِكَ أَنْ لَا يُحْرِقَ الدَّرَجَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمْ. بَلْ أَمَرَ الْمَلِكُ يَرْحَمَيْلَ ابْنَ الْمَلِكِ، وَسَرَايَا بْنَ عَزْرَيْلَ، وَشَلَمِيَا بْنَ عَبْدِئِيلَ، أَنْ يَقْبِضُوا عَلَى بَارُوخِ الْكَاتِبِ وَإِرْمِيَا النَّبِيِّ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ خَبَّاهُمَا. ثُمَّ صَارَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى إِرْمِيَا بَعْدَ إِحْرَاقِ الْمَلِكِ الدَّرَجِ وَالْكَلامِ الَّذِي كَتَبَهُ بَارُوخُ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا قَائِلَةً: عُدْ فَخُذْ لِنَفْسِكَ دَرَجًا آخَرَ، وَاكْتُبْ فِيهِ كُلَّ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ" (إر ٣٦: ٢٣-٢٧).

جلس الصبي الصغير تحت أشعة الشمس ومعه عدسة مكبرة في يده، وكانت أمامه مجموعة من النمل تجري هنا وهناك كما يفعل النمل باستمرار، وبشيء من التركيز وجه الصبي أشعة الشمس المركزة بواسطة عدسته على النمل واستمر يراقبه وهو يحترق، وهنا شعر الصبي كأنه إله. لقد تم تعريف القوة بأنها المقدرة التي تجعل بها الآخرين يفعلون كما تريد، وربما هي الصفة التي يتم البحث عنها أكثر من أي شيء آخر في العالم. وأمَّا الجنس والمال وهما منافسان للقوة فليسا سوى طرق مختلفة للحصول على القوة. ومهما غلقنا القوة فهي تحت سلطان، ونستطيع أن نتعرف على ميادين واضحة حيث تمارس فيها القوة مثل السياسة، والأعمال الكبرى والصناعة، وفي القوات المسلحة، وفي القانون والنظام.

لكن اتباع القوة هو الأمر السائد في كل العالم إذ يسعى الناس ليجعلوا غيرهم يفعلون ما يريدونه منهم، سواء كان ذلك على مستوى الهيئات أو داخل البيوت، وفي المدارس أو في أعظم الغرف، وهكذا يستمر صراع القوة. كما أنها موجودة في الأسابيع الأولى من حياة الطفل عندما يبدأ في مص ثديي أمه، كما أنه يستطيع أن يبلى فراش جدته العجوز عدة مرات في اليوم الواحد. وربما يقول الساخر بأن الذين يفقدون قوتهم هم فقط الذين يتمتعون ببركات التواضع. كانت القوة في إسرائيل تتمركز في الملك، وكان يمثل الحد القاطع لحكم الله على الأرض "مَسِيحُ الرَّبِّ" (مراثي ٤: ٢٠) وتجسيد حكم الله وممثله على الأرض.

وقد تم التعبير عن هذه الفكرة بجلاء في ما يسمى بالمزامير الملكية وعلى سبيل المثال فإن المرنم كان يصلّي هكذا: "اللَّهُمَّ أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبَرِّكَ لِابْنِ الْمَلِكِ" وكان الملك يشبه "الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ (الحشيش المجزوز أي المحصود) وَمِثْلَ الْغُيُوثِ (الأمطار) الذَّارِفَةِ عَلَى الْأَرْضِ" (مز ٧٢: ١، ٦) وهنا نشعر بمقدار الاحترام والامتنان والحب، فهو ملكنا، وهو: "الَّذِي قُلْنَا عَنْهُ: فِي ظِلِّهِ نَعِيشُ بَيْنَ الْأُمَمِ" (مراثي ٤: ٢٠) - أي مصدر حياتنا، وكل آمالنا نحوه، فلنهلل لمسيح الرب!. والملك كان هو آدم قبل السقوط، وكما يعطي الملوك أسماء كذلك أعطى آدم أسماء للحيوانات، وكما أن للملك سلطاناً على مملكته، كان آدم سيداً على الخليقة.

ولما سأل المرنم: "فَمَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ؟" كانت الإجابة أنه مثل الملك وقد وضعه "قَلِيلًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ" ثم "تُكَلِّمُهُ" بهذه الصفات الملكية جداً وهي "مَجْدٍ وَبَهَاءٍ" (مزمور ٨: ٤، ٥). وهكذا فإن كل إنسان هو مثل الملك، وكل ملك

يجب أن يكون هو "الإنسان المثالي" . وهذه هي أسمى صور الملكية، أمّا في حالة ما إذا فكر الملوك فوق مراكزهم فإنهم يقابلون هذا الشعور القوي بأنهم إخوة وأقرباء لبقية الإسرائيليين.

وقد هاجم إرميا مرة ملك يهوذا وشكا أنه "يَسْتَخْدِمُ صَاحِبَهُ مَجَانًّا وَلَا يُعْطِيهِ أُجْرَتَهُ" (٢٢: ١٣)، فالملك والنجار جيران! وهذا التعليم عن الملكية لم يكن معلوماً لدى الأمم التي حول إسرائيل، والملك بحسب الكتاب المقدّس لا يجب أن يكون مستبدّاً، فهو بالتأكيد ليس إلهاً، بل مجرد إنسان، والملك الحقيقي لإسرائيل كان يهوه نفسه. لكن ليس كل الملوك كانوا يعلمون ذلك، وفي عام ٦٠٩ ق.م تم تجليس شاب فاسد في الخامسة والعشرين من عمره على عرش يهوذا بواسطة فرعون مصر، وكان عمله ينحصر في الاهتمام بالدولة نيابة عن سيده، فترك اسمه الشخصي ألياقيم واتخذ اسم العرش يهوياقيم، ولكننا كما سوف نرى أن القوة قد استبدت فجأة على رأسه فكان أصغر مما وضع عليه.

### الدرج والمبرة:

كما يحدث عادة فإن الكتاب المقدّس يقدم لنا المواضيع الخطيرة في شكل لقطات حية، ونحن نحتاج للعودة إلى يوم بارد في ديسمبر من عام ٦٠٤ ق.م لقد كان يوماً لصيام قومي يدعي إليه وقت الطوارئ القومية. أمّا سابقاً في صيف ذلك العام فقد دمّر نبوخذ نصر ملك بابل مصر في معركة عظيمة عند كركميش وبذلك أعطى ملاحظة بأنه هو القوة الجديدة على المستوى العالمي، وقد بدأت الآن جيوشه تتحرك إلى سوريا وفلسطين، وفجأة أصبحت كل نبوات إرميا عن العدو أو الشر الآتي من الشمال "إِرْفَعُوا

الرَّايَةَ نَحْوَ صِهْيُونََ. اِحْتَمُوا. لَا تَقْفُوا. لِأَنِّي آتِي بِشَرٍّ مِنْ الشِّمَالِ وَكَسْرٍ عَظِيمٍ" (٤: ٦) قابلة للتصديق.

أمّا قادة أورشليم فقد قرروا أنه من الحكمة أن ينادوا بقليل من إذلال الذات. كان يهوياقيم جالساً في قصره في أورشليم، وقد نزح إلي بيت الشتاء طلباً للدفء، وكانت أمامه في الغرفة الباردة نار تتقد في الكانون. وهناك كان يحكم ويتعامل مع شئون الدولة وهو محاط بالخدم والميشرين والرؤساء. لكن ما يجذب انتباهنا هو تصرف رجل بيروقراطي بسيط يدعى يهودي، وقد وقف مقابل الملك وقرأ من درج جلدي وساد السكون في الغرفة، فلم يكن ذلك عملاً روتينياً، ولم يُسمع سوى صوت يهودي وفرقة النار. ثم توقف يهودي لكي يطوي الدرج لكن يهوياقيم ينحني في تلك اللحظة ويأخذ منه الدرج ثم يسحب مبراة (سكين) الكاتب ويمزق متعمداً الجزء الذي تمت قراءته ثم يلقي به في النار ويتربق احتراقه ويبدو الامتعاض على وجهه، ثم يعطي الدرج ثانية إلى يهودي ويأمره بالقراءة.

حاول ثلاثة من الرؤساء أن يحتجوا وطلبوا الحذر من الملك لكنه لم ينتبه إليهم، بل كرر عمداً نفس العملية حتى قرأ الدرج كله وأحرقه كله. ولعل هذا المنظر لا يُنسى في الكتاب المقدس. وكان خلف عمل الملك مجهود شاق، فالدرج ينتمي إلى إرميا، وكان يحتوي على كل عظاته وأشعاره من اليوم الذي بدأ يتنبأ فيه وحتى تلك اللحظة، وقد أملى الكلام على باروخ كاتبه المخلص وقد حمل باروخ الدرج إلى الهيكل وقرأ في ذلك الصباح كل الكلام للناس الذين وقفوا في ساحة الهيكل. أمّا التأثير المتراكم لهذا الشجب فكان قوياً، ولا نندهش عندما طلب من باروخ قراءة ثانية

ولكن هذه المرة إلى مجموعة من الرؤساء، وقد رأوا أن ذلك لم يكن مجرد استياء وشكوى ضد الحكومة بل وأخطر من ذلك ويصل إلي القمة، ونتيجة لذلك وجد يهودي نفسه يقرأ الدرج للملك ذاته.

### رجل الله ورجل القوة:

يزخر الكتاب المقدس بمناظر مماثلة لما سبق أي المقابلات بين رجل يحمل كلمة الله وبين آخر يمثل السلطة البشرية: مثل موسى وفرعون، ناثان وداود، إيليا وآخاب، يوحنا المعمدان وهيرودس، الرب يسوع وبيلاطس، بولس وفيلكس. وهنا نجد إرميا ضد يهوياقيم متمثلاً في الدرج والمبرة، أي الكلمة ضد السيف. وهنا لابد من تقديم ما كان يحدث تحت السطح، فلم تكن أعمال يهوياقيم مجرد أسلوب يظهر به احتقاره للرجل إرميا، ذلك لأن تعمده في تدمير للرسالة وكأنه يقول: "هذه النبوات عن الدينونة لن تحدث فقد مزقتها قطعاً صغيرة بل وحرقتها".

وربما تكون محقاً إذا فكرت بأن هذا العمل يشبه المعتوه الذي يقول: "إن الشمس سوف لا تشرق لأنني أطفأتها الليلة الماضية"، لكن ذلك كان بالضبط ما يعمل الطغاة. من حقائق القوة العارية هي أنها تفسد الشخص الذي يستخدمها. ولقد بدأ الملك يعتقد أنه في إمكانه أن يخلق واقعاً والحقيقة إنه من ملامح القوى أنه يحاول أن يخلق عالماً يكون هو إلهه. والدولة أو أي تنظيم مماثل غالباً ما تفشل في زعزعة كل مواقف إلهية، وهكذا اعتقد يهوياقيم أن سيفه أقوى من الكلمة وأن قراره يمكن أن يخلق عالماً تبادلياً.

أما مسئولية الشخص الذي يريد أن يخدم الله فهي التمسك بحقيقة أن العالم الحقيقي يقع خارج حوائط قصر الطاغية أو السجن أو الحجز أو المكتب أو غرفة النوم، ومثل هذا الشخص يُعتبر أداة الملك من نوع آخر وله يكون انتماؤه كما قال الرسول بطرس بكل عزم أمام مجمع اليهود: "إِنْ كَانَ حَقًّا أَمَامَ اللَّهِ أَنْ نَسْمَعَ لَكُمْ أَكْثَرَ مِنْ اللَّهِ، فَاحْكُمُوا" (أع ٤: ١٩). وكما قال مارتن لوثر: "إن ضميري أسير لكلمة الله، وهنا أنا أقف ولا أستطيع خلاف ذلك". ولعل الكلمة النهائية بخصوص حقائق القوة قد قالها الرب يسوع أمام ممثلي أعظم امبراطورية على الأرض: "لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ، لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ" (يو ١٩: ١١) وبسبب هذا الكلام كانت المعاملة السيئة له في آلامه.

ومن سخرية الأقدار أن رجال القوة يحاولون تخفيف الأعمال الإلهية القوية وذلك بأن قاموا بعملية "تتزيج" من صنعهم - بإكليل الشوك والرداء القرمزي والانحناء الساخر - وربما اعتقد بيلاطس أنه قادر أن يتخلص من المشكلة وأنه يستطيع أن يمحو ادعاءات الرب يسوع بأن يرفض أخذها مأخذ الجد: "هل أنت ملك اليهود؟" حسناً ومن الأفضل أن نكتب ذلك على اللافتة. إلا أن كل عمل ساخر أو استهزاء، وكل محاولة لخلق حقيقة تبادلية إنما تؤدي فقط إلى حفر الحقيقة الواقعية بحيث لا يسهل محوها، فالرب يسوع الذي سخرُوا به هو بالحقيقة ملك اليهود.

### **الرجل العاقل في مستشفى المجانين:**

يدخل النبي إلى عالم الطاغية كأنه من الخارج، ولكن عندما تكون الأبواب محكمة الغلق يبدو أن العالم الداخلي هو الوحيد في هذا الكون. ولكن ماذا يستطيع الرجل العاقل أن



يقدمه في مستشفى المجانين؟ إن قصة إرميا ودَرْجَة تشير إلى حقيقتين هامتين:

**الحقيقة الأولى** هي أن النبي يملك رسماً حول الاستعمال الصواب للقوة، وله خطة عن الأسلوب السليم لممارسة القوة في مقابل العوالم الصغيرة التي يخلقها الناس، وهذه الخريطة ليست شيئاً يحلم به ولا من تفضيله الشخصي ولكنها طريقة الله التي يرى بها القوة. وحدث سابقاً أثناء حكم يهوياقيم أن إرميا أعلن عن مثال الله لممارسة القوة يقول لا لبس فيه هكذا: "أَجْرُوا حَقًّا وَعَدْلًا، وَأَنْقِذُوا الْمَغْضُوبَ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ، وَالْغَرِيبَ وَالْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَةَ. لَا تَضْطَهِدُوا وَلَا تَظْلِمُوا، وَلَا تَسْفِكُوا دَمًا زَكِيًّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ" (٢٢: ٣). إن حكم الملك يجب أن يتميز بالعدل، والقوة تصيب عندما تستخدم نيابة عن الآخرين. ويخبرنا الكتاب المقدس عن ملوك اغتصبوا حقل آخر أو أخذوا زوجته أو حياته، لكن الملك بحسب قلب الله هو الذي يحكم بالعدل. وكان إرميا يعرف كيف يكون الملك الصالح.

**والحقيقة الثانية** بعد معرفة الصورة التي يجب أن يكون عليها الحاكم، وهي أن النبي عليه واجب يجب أن يتكلم عنه، ولذلك لزم أن يكتب إرميا الدرج برغم احتوائه خيطاً مستمراً من الانتقادات، كما كان عليه واجب مهاجمة يهوياقيم بسبب سوء استعماله للقوة: "وَيْلٌ لِمَنْ يَبْنِي بَيْتَهُ بِغَيْرِ عَدْلٍ وَعَقْلِيَّةٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، الَّذِي يَسْتَخْدِمُ صَاحِبَهُ مَجَانًا وَلَا يُعْطِيهِ أُجْرَتَهُ.... هَلْ تَمْلِكُ لِأَنَّكَ أَنْتَ تُحَاذِي الْأَرْضَ؟ أَمَا أَكَلَ أَبُوكَ وَشَرِبَ وَأَجْرَى حَقًّا وَعَدْلًا؟ حِينَئِذٍ كَانَ لَهُ خَيْرٌ... لِأَنَّ عَيْنَيْكَ وَقَلْبَكَ لَيْسَتْ إِلَّا عَلَى خَطْفِكَ، وَعَلَى الدَّمِ الزَّكِيِّ

لِتَسْفِكَهُ، وَعَلَى الْاِغْتِصَابِ وَالظُّلْمِ لَتَعْمَلَهُمَا" (٢٢: ١٣، ١٥، ١٧).

وبعد سنوات جاء ملك ضعيف ومثير للشفقة الملك صدقيا الذي دعا إرميا لنبوة خاصة وقد وعده بالأمان وبحسن الطالع عند عودته! لكن إرميا رفض أن يغير ما قاله الله بأن صدقيا يضمن سلامته لو أنه استسلم للبابليين بلا تأخير وإلا سوف يؤخذ سجيناً ويواجه مصيراً مرعباً. وفي مناسبة أخرى عندما كانت أورشليم محاصرة أن تعهد صدقيا بعهد مع نبلاء الأرض أن يطلقوا عبيدهم أحراراً "الكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ الرَّبِّ بَعْدَ قَطْعِ الْمَلِكِ صِدْقِيَا عَهْدًا مَعَ كُلِّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ لِيَنَادُوا بِالْعِتْقِ أَنْ يُطْلَقَ كُلُّ وَاحِدٍ عَبْدَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ أُمَّتَهُ الْعِبْرَانِيَّ وَالْعِبْرَانِيَّةَ حُرِّينَ حَتَّى لَا يَسْتَعْبِدَهُمَا (أَيُّ أَخَوِيهِ الْيَهُودِيِّينَ) أَحَدٌ. فَلَمَّا سَمِعَ كُلُّ الرُّؤَسَاءِ وَكُلُّ الشَّعْبِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْعَهْدِ فِي الْعَهْدِ أَنْ يُطْلَقُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَبْدَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ أُمَّتَهُ حُرِّينَ وَلَا يَسْتَعْبِدُوهُمَا بَعْدَ أَطَاعُوا وَأَطْلَقُوا." (٣٤: ٨ - ١٠) وفجأة رفع البابليون حصارهم، وعندما زال الخطر الفوري نقض الملك والطبقة الارستقراطية ذلك العهد وأجبروا بني جنسهم ثانية إلى العبودية. وهكذا يكون للمرة الثانية أن يقوم النبي بواجبه في شجب الخيانة وقال لهم: "هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: أَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي لِيَتَنَادُوا بِالْعِتْقِ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى أَخِيهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ إِلَى صَاحِبِهِ. هَآنَذَا أَنَادِي لَكُمْ بِالْعِتْقِ، يَقُولُ الرَّبُّ، لِلسَّيْفِ وَالْوَبَايِ وَالْجُوعِ" (٣٤: ١٧).

### التكلفة والانتصار:

لا يجب أن نفترض سهولة هذا الأمر فهو يفوق القدرة البشرية لاسميا في زنزانة الشرطة بالغرم من أن البعض حملوا الشهادة حتى في مثل هذه الأماكن. وقد يصعب الأمر

بالنسبة للسكرتيرة التي يهددها رئيسها أو العامل الذي يهدده أولاد الشارع أو الطالب الذي يضغط عليه مدرس لا مبادئ له، أو المواطن العادي الذي يواجه مَنْ يضربونه بلا تعقل. ولعل الإصابة الأولى في مثل هذه الأحوال هي سلامة الفرد. وكان يهوي اقيم محاطاً بمجموعة من المتملقين فقد سمعوا كلام الدرج ولكنهم لم يخافوا ولم يشقوا ثيابهم "وَلَمْ يَخَفِ الْمَلِكُ وَلَا كُلُّ عَبِيدِهِ السَّامِعِينَ كُلَّ هَذَا الْكَلَامِ وَلَا شَقُّوا ثِيَابَهُمْ" (٣٦: ٢٤)، وتأكد الملك أن له جماعة من الأنبياء المتوددين له والذين يتكلمون حسب أوامره.

ولعل الضغط على إرميا كان شديداً لكي ينضم إلى تلك المجموعة أو يبقى صامتا، لكن كل مَنْ يحمل "الكلمة" يواجه نفس التجربة مهما كانت المواجهة بسيطة أو تافهة. ولعلنا نرتكب الخيانة بطرق صغيرة سواء من خلال الخوف أو في سبيل توقع ميزة بسيطة، كما لا نريد عداوة بيننا وبين أولئك الذين قد يجعلون الحياة صعبة أو يوقفون الترقية، كما لا نريد أن نبدو شاذين أو متشددين جداً، بل نريد الاحترام لأنفسنا، كما أننا نتضايق إذا خرجنا عن الخط العام. وهكذا فإن الضعيف أو مَنْ لا سند له فإنه يذهب إلى القضاء وليس معه صديق يتكلم من أجله، لكن الرب يسوع يذهب معهم، وإذا فكرنا بخلاف ذلك فربما لا نتمكن حتى من سماع صياح الديك.

ولا يستطيع أحد أن يتهم إرميا لو أنه قام بحل وسط، لكن حياته تظهر بطريقة خاصة في وضوح النتيجة الحتمية لمن يتكلم عن الله ضد رجل القوة. ولقد انجذب إلى الصراع والألم، ووضع في المقطرة وضرب وسُجن ورُبط في حفرة كما أنزل إلى بئر وترك به ليموت، وكل سفر إرميا لم يخف أو يتوار

عن الحقيقة المرة بأن "مَنْ يعترف الاعتراف الحسن" كما فعل الرب يسوع أمام بيلاطس سوف يقوده ذلك إلى الألم. وبالرغم من أن الدرج تحوّل إلى رماد فقد أصدر يهوياقيم أمره بالقبض على "بَارُوخَ الْكَاتِبِ وَإِرْمِيَا النَّبِيِّ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ خَبَأَهُمَا" (٣٦: ٢٦).

ولئن حدث ذلك هذه المرة لكن ربما لا يحدث هكذا باستمرار. وليست هذه هي نهاية القصة، كما أنها ليست مجرد قصة رفض الكلمة بواسطة طاغية، لكنها أيضاً قصة "كلمة" لا يمكن تدميرها بل إنها سوف تتحقق في حينه، ولذلك: "فَأَخَذَ إِرْمِيَا دَرْجًا آخَرَ وَدَفَعَهُ لِبَارُوخَ بْنِ نِيرِيَا الْكَاتِبِ، فَكَتَبَ فِيهِ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا كُلَّ كَلَامِ السِّفْرِ الَّذِي أَحْرَقَهُ يَهُوَيَاقِيمُ مَلِكُ يَهُودَا بِالنَّارِ، وَزِيدَ عَلَيْهِ أَيْضًا كَلَامٌ كَثِيرٌ مِثْلُهُ" (٣٦: ٣٢). لقد سقطت أورشليم في أيدي الغزاة كما وعد الله وكما تنبأ إرميا. ولعلنا نستطيع أن نتخيل النبي الذي حمل آثار المعاملة السيئة في جسده وقد دُعي لاجتماع سري مع صدقيا المرتعب وهناك نرى الأدوار المقلوبة ولا مجال أن نشك في موضع القوة الحقيقية، بينما لم يعد يهوياقيم سوي العوبة وكذلك صدقيا في أيدي رجال الحاشية الملكية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ذهبت كل ما كان يقال عنها بالامبراطوريات العظيمة، فقد سقطت مصر أمام بابل كما حدث مع آشور التي لا تقهر من قبلها، وفي الوقت المناسب سوف تسقط أيضاً بابل وكما نتوقع فإن إرميا قد سجل في الدرج كل ما كان سوف يحدث.

وسوف تبقى واحدة من أكثر الأغاني رعباً في الكتاب المقدس والتي تسخر هكذا: "قُولُوا: أَخَذْتُ بَابِلُ" وكان الكلام موجهاً إلى سرايا أحد المسبيين وقال له: "وَيَكُونُ إِذَا فَرَعْتَ

مِنْ قِرَاءَةِ هَذَا السِّفْرِ أَنْتَ تَرْتَبُ بِهٍ حَجْرًا وَتَطْرَحُهُ إِلَى وَسْطِ  
الْفُرَاتِ وَتَقُولُ: هَكَذَا تَغْرَقُ بَابِلُ وَلَا تَقُومُ" (٥٠: ١، ٥١: ٦٣-  
٦٤). ولكن صوتاً يملؤه الرعب والأسى بسبب السبي سوف  
ينادي في ما بعد قائلاً: "كُلُّ جَسَدٍ عُشْبٌ، وَكُلُّ جَمَالِهِ كَزَهْرِ  
الْحَقْلِ. يَبِسَ الْعُشْبُ، ذَبَلَ الزَّهْرُ، لِأَنَّ نَفْخَةَ الرَّبِّ هَبَتْ عَلَيْهِ.  
حَقًّا الشَّعْبُ عُشْبٌ! بَسَ الْعُشْبُ، ذَبَلَ الزَّهْرُ. وَأَمَّا كَلِمَةٌ  
إِلَيْهِمَا فَتَثَبَّتْ إِلَى الْأَبَدِ" (إش ٤٠: ٦، ٨).

## الفصل السادس

### النبع الجاف

"قَدْ أَفْنَعْتَنِي يَا رَبُّ فَأَقْتَنَعْتُ، وَأَلْحَحْتَ عَلَيَّ فَغَلَبْتَنِي.  
صِرْتُ لِلضَّحِكِ كُلِّ النَّهَارِ... لِأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ لِي  
لِلْعَارِ... فَقُلْتُ: لَا أَذْكُرُهُ... فَكَانَ فِي قَلْبِي كَنَارٍ  
مُحْرِقَةٍ... الرَّبُّ مَعِيَ كَجَبَّارٍ قَدِيرٍ... رَنِمُوا لِلرَّبِّ... مَلْعُونَ  
الْيَوْمِ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ... لَمْ يَقْتُلْنِي مِنَ الرَّحِمِ، فَكَانَتْ  
لِي أُمِّي قَبْرِي... لِمَاذَا خَرَجْتُ مِنَ الرَّحِمِ، لِأَرَى تَعَبًا  
وَحُزْنَ فَتَفَنِّي بِالْخِزْيِ أَيَّامِي؟" (٢٠: ٧-١٨).

إن الرغبة في النظام غالباً ما تكون غريزة، ونحن نميل أن  
نرتب الأمور في صيغة مقبولة وأن نرى الصور بوضوح، وهكذا  
يكون الشكل والنظام والأسلوب من أحجار بناء الفهم في  
العالم، والواقع إننا لا نستطيع القول بأننا نفهم شيئاً ما لم  
نضعه في موضعه أو مكانه المناسب. وعندما نقول قصة  
فتلك وسيلة لفرض نظام على اخباراتنا قبل أن تطير في كل  
الاتجاهات، ويصدق ذلك على وجه الخصوص على الشهادة،  
وهي شكل القصة التي يفضلها المؤمنون وهذه الشهادات  
بحسب طبيعتها تكون فريدة وشخصية ولكنها تأخذ عادة  
شكلاً معروفاً لأنها طريقة تعبير للحياة من وجهة نظر

مسيحية، فيقول أحدهم: كنت ملحدًا أو مدمناً أو مسيحياً بالاسم فقط وفي أحد الأيام ذهبت إلى.. ومن تلك اللحظة استلم الرب حياتي... ولا داعي بأن كل شيء أضحى سهلاً ولكن... وهكذا يشعر المتكلم أنه آمن في حدود مقبولة وهذا هو نوع الكلام الذي يتحدث به الناس عن الله وعن أنفسهم كما يشعر المستمعون بالضمان حيث أن مثل هذه القصص لا تختلف كثيراً عما لهم.

لكن ماذا يحدث لو أنك قدمت شهادة تحطم القواعد وتخرج كأنها ضد الشهادة؟ يحتوي سفر إرميا على عدد من الاحتياجات الشخصية والمراثي والمحاورات مع الله والتي لا تتوافق بسهولة مع أسلوب الشهادة كما سبق الحديث وهي واردة كما يلي: "وَالرَّبُّ عَرَّفَنِي فَعَرَفْتُ. حِينَئِذٍ أَرَيْتَنِي أفعالهم. وَأَنَا كَخَرُوفٍ دَاجِنٍ يُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَلَمْ أَعْلَمْ أَنَّهُمْ فَكَّرُوا عَلَيَّ أَفْكَارًا قَائِلِينَ: لِنُهْلِكَ الشَّجَرَةَ بِثَمَرِهَا وَنَقْطَعُهُ مِنْ أَرْضِ الْأَحْيَاءِ فَلَا يُذْكَرُ بَعْدُ اسْمُهُ. فَيَا رَبَّ الْجُنُودِ الْقَاضِي الْعَدْلَ فَاحِصَ الْكُلَى وَالْقَلْبِ دَعْنِي أَرَى انْتِقَامَكَ مِنْهُمْ لِأَنِّي لَكَ كَشَفْتُ دَعْوَايَ. لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ أَهْلِ عَنَاثُوثَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسَكَ قَائِلِينَ: لَا تَتَّبَعْنَا بِاسْمِ الرَّبِّ فَلَا تَمُوتَ بِيَدِنَا. لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: هَئِنذَا أَعَاقِبُهُمْ. يَمُوتُ الشُّبَّانُ بِالسَّيْفِ وَيَمُوتُ بَنُوهُمْ وَبَنَاتُهُمْ بِالْجُوعِ. وَلَا تَكُونُ لَهُمْ بَقِيَّةٌ لِأَنِّي أَجْلِبُ شَرًّا عَلَى أَهْلِ عَنَاثُوثَ سَنَةَ عِقَابِهِمْ" (١١: ١٨-٢٣)،

"أَبْرُ أَنْتَ يَا رَبُّ مِنْ أَنْ أُخَاصِمَكَ. لَكِنْ أَكَلِمَكَ مِنْ جِهَةِ أَحْكَامِكَ. لِمَذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الْأَشْرَارِ؟ اطمأن كل الغادرين غدرًا. غرستهم فأصلوا. نموا وأثمروا ثمرًا. أنت قريب في فمهم وبعيد من كلاًهم. وأنت يا رب عرفتني. رأيتني

وَاخْتَبَرْتَ قَلْبِي مِنْ جِهَتِكَ. اَفْرَزَهُمْ كَغَنَمٍ لِلذَّبْحِ وَخَصَّصَهُمْ لِيَوْمِ الْقَتْلِ. حَتَّى مَتَى تَنُوحُ الْأَرْضُ وَيَبْسُ عَشْبُ كُلِّ الْحَقْلِ؟ مِنْ شَرِّ السَّاكِنِينَ فِيهَا فَنَيْتِ الْبَهَائِمُ وَالطُّيُورُ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: [لَا يَرَى آخِرَتَنَا]. إِنْ جَرَيْتَ مَعَ الْمَشَاةِ فَاتَّعْبُوكَ فَكَيْفَ تُبَارِي الْخَيْلَ؟ وَإِنْ كُنْتَ مُنْبَطِحاً فِي أَرْضِ السَّلَامِ فَكَيْفَ تَعْمَلُ فِي كِبْرِيَاءِ الْأَرْدُنِّ؟ لِأَنَّ إِخْوَتَكَ أَنْفُسَهُمْ وَبَيْتَ أَبِيكَ قَدْ غَادَرُوكَ هُمْ أَيْضاً. هُمْ أَيْضاً نَادُوا وَرَاءَكَ بِصَوْتِ عَالٍ. لَا تَأْتَمِنُهُمْ إِذَا كَلَّمُوكَ بِالْخَيْرِ" (١٢: ١-٦)،

"وَيْلٌ لِي يَا أُمَّي لِأَنَّكَ وَلَدْتَنِي إِنْسَانَ خِصَامٍ وَإِنْسَانَ نِزَاعٍ لِكُلِّ الْأَرْضِ. لَمْ أَقْرِضْ وَلَا أَقْرِضُونِي وَكُلُّ وَاحِدٍ يَلْعَنُنِي. قَالَ الرَّبُّ: إِنِّي أَحْلُكَ لِلْخَيْرِ. إِنِّي أَجْعَلُ الْعَدُوَّ يَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ فِي وَقْتِ الشَّرِّ وَفِي وَقْتِ الضِّيقِ. هَلْ يَكْسِرُ الْحَدِيدُ الْحَدِيدَ الَّذِي مِنَ الشِّمَالِ وَالنُّحَاسَ؟ ثَرَوَتِكَ وَخَزَائِنِكَ أَذْفَعُهَا لِلنَّهْبِ لَا يَثْمَنُ بَلْ بِكُلِّ خَطَايَاكَ وَفِي كُلِّ تُخُومِكَ. وَأَعْبُرِكَ مَعَ أَعْدَائِكَ فِي أَرْضٍ لَمْ تَعْرِفْهَا لِأَنَّ نَاراً قَدْ أَشْعَلْتَ بِغَضَبِي تُوقِدُ عَلَيْكُمْ" (١٥: ١٠-١٤)،

"أَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَ. اذْكُرْنِي وَتَعَهَّدْنِي وَانْتَقِمْ لِي مِنْ مُضْطَهِّدِي. بِطُولِ أَنْاتِكَ لَا تَأْخُذْنِي. اعْرِفِ احْتِمَالِي الْعَارَ لِأَجْلِكَ. وَجِدْ كَلَامَكَ فَأَكَلْتَهُ فَكَانَ كَلَامَكَ لِي لِلْفَرَحِ وَلِبَهْجَةٍ قَلْبِي لِأَنِّي دُعَيْتُ بِاسْمِكَ يَا رَبُّ إِلَهَ الْجُنُودِ. لَمْ أَجْلِسْ فِي مَحْفَلِ الْمَازِحِينَ مُبْتَهِجاً. مِنْ أَجْلِ يَدِكَ جَلَسْتُ وَحْدِي لِأَنَّكَ قَدْ مَلَأْتَنِي غَضَباً. لِمَآذَا كَانَ وَجَعِي دَائِماً وَجُرْحِي عَدِيمَ الشِّفَاءِ يَا بِي أَنْ يُشْفَى؟ أَتَكُونُ لِي مِثْلَ كَاذِبٍ مِثْلَ مِيَاهِ غَيْرِ دَائِمَةٍ؟ لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: إِنْ رَجَعْتَ أَرْجِعْكَ فَتَقِفُ أَمَامِي. وَإِذَا أَخْرَجْتَ الثَّمِينَ مِنَ الْمَرْدُولِ فَمِثْلَ فَمِي تَكُونُ. هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ. وَأَجْعَلْكَ لِهَذَا الشَّعْبِ سُورَ

نَحَاسٍ حَصِينًا فَيَحَارِبُونَكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ لِأَنِّي مَعَكَ لِأَخْلَصَكَ  
وَأَنْقِذَكَ يَقُولُ الرَّبُّ. فَأَنْقِذْكَ مِنْ يَدِ الْأَشْرَارِ وَأَفِدِكَ مِنْ كَفِّ  
الْعُتَاةِ" (١٥: ١٥-٢١)،

"إِسْفِنِي يَا رَبُّ فَأَشْفِي. خَلِّصْنِي فَأَخْلَصَ لَأَنَّكَ أَنْتَ  
تَسْبِيحَتِي. هَا هُمْ يَقُولُونَ لِي: أَيْنَ هِيَ كَلِمَةُ الرَّبِّ؟ لَتَاتِ!  
أَمَا أَنَا فَلَمْ أَعْتَزَلْ عَنْ أَنْ أَكُونَ رَاعِيًا وَرَأَاكَ وَلَا اشْتَهَيْتُ يَوْمَ  
الْبَلِيَّةِ. أَنْتَ عَرَفْتَ. مَا خَرَجَ مِنْ شَفْتِي كَانَ مُقَابِلَ وَجْهِكَ. لَا  
تَكُنْ لِي رُعبًا. أَنْتَ مَلْجَأِي فِي يَوْمِ الشَّرِّ. لِيخْزَ طَارِدِيَّ وَلَا  
أَخْزَ أَنَا. لِيَرْتَعِبُوا هُمْ وَلَا أَرْتَعِبْ أَنَا. إِجْلِبْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الشَّرِّ  
وَاسْحَقْهُمْ سَحَقًا مُضَاعَفًا" (١٧: ١٤-١٨)،

"فَقَالُوا: [هَلُمَّ فَنفَكِرْ عَلَى إِرْمِيَا أَفْكَارًا لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تَبِيدُ  
عَنِ الْكَاهِنِينَ وَلَا الْمَشُورَةَ عَنِ الْحَكِيمِ وَلَا الْكَلِمَةَ عَنِ النَّبِيِّ.  
هَلُمَّ فَنَضْرِبُهُ بِاللِّسَانِ وَلِكُلِّ كَلَامِهِ لَا نُصْغِ]. أَصْغِ لِي يَا رَبُّ  
وَاسْمَعْ صَوْتَ أَحْصَامِي. هَلْ يُجَازِي عَنْ خَيْرٍ بَشَرًا؟ لِأَنَّهُمْ  
حَفَرُوا حُفْرَةً لِنَفْسِي. اذْكُرْ وَقُوفِي أَمَامَكَ لِأَتَكَلَّمَ عَنْهُمْ بِالْخَيْرِ  
لَأَرُدَّ غَضَبَكَ عَنْهُمْ. لِذَلِكَ سَلِمَ بَيْنَهُمْ لِلْجُوعِ وَادْفَعَهُمْ لِيَدِ  
السَّيْفِ فَتَصِيرَ نِسَاؤُهُمْ ثَكَالِي وَأَرَامِلَ وَتَصِيرَ رِجَالُهُمْ قَتْلَى  
الْمَوْتِ وَشَبَابُهُمْ مَضْرُوبِي السَّيْفِ فِي الْحَرْبِ. لِيَسْمَعْ صِيَاخُ  
مِنْ بُيُوتِهِمْ إِذْ تَجَلِبُّ عَلَيْهِمْ جَيْشًا بَغْتَةً. لِأَنَّهُمْ حَفَرُوا حُفْرَةً  
لِيُمْسِكُونِي وَطَمَرُوا فِخَاخًا لِرِجْلِي. وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَ كُلَّ  
مَشُورَتِهِمْ عَلَيَّ لِلْمَوْتِ. لَا تَصْفَحْ عَنْ إِثْمِهِمْ وَلَا تَمْحُ خَطِيئَتَهُمْ  
مِنْ أَمَامِكَ بَلْ لِيَكُونُوا مُتَعَثِّرِينَ أَمَامَكَ. فِي وَقْتِ غَضَبِكَ  
عَامِلُهُمْ" (١٨: ١٨-٢٣)،

"قَدْ أَفْنَعْتَنِي يَا رَبُّ فَاقْتَنَعْتُ وَأَلْحَحْتَ عَلَيَّ فَغَلَبْتَ. صِرْتُ  
لِلضَّحْكِ كُلِّ النَّهَارِ. كُلُّ وَاحِدٍ اسْتَهْزَأَ بِي. لِأَنِّي كَلَّمَا تَكَلَّمْتُ  
صَرَخْتُ. نَادَيْتُ: [ظَلَمْتُ وَاغْتِصَابًا! لِأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ لِي



لِلْعَارِ وَلِلسُّخْرَةِ كُلِّ النَّهَارِ. فَقُلْتُ: لَا أذْكُرُهُ وَلَا أَنْطِقُ بَعْدُ بِاسْمِهِ]. فَكَانَ فِي قَلْبِي كَنَارٌ مُحْرِقَةٌ مَحْضُورَةٌ فِي عِظَامِي فَمَلَيْتُ مِنَ الْإِمْسَاكِ وَلَمْ أَسْتَطِعْ. لِأَنِّي سَمِعْتُ مَذْمَةً مِنْ كَثِيرِينَ. خَوْفٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. يَقُولُونَ: اشْتَكُوا فَنَشْتَكِي عَلَيْهِ. كُلُّ أَصْحَابِي يُرَاقِبُونَ ظَلْعِي قَائِلِينَ: لَعَلَّهُ يُطْغَى فَنَقْدِرَ عَلَيْهِ وَنَنْتَقِمَ مِنْهُ]. وَلَكِنَّ الرَّبَّ مَعِيَ كَجَبَّارٍ قَدِيرٍ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَعْثُرُ مُضْطَهَدِي وَلَا يَقْدِرُونَ. خَزُوا جِدًّا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْجَحُوا خِزْيًا أَبَدِيًّا لَا يُنْسَى. فَيَا رَبَّ الْجُنُودِ مُخْتَبِرَ الصِّدِّيقِ نَاطِرَ الْكَلَى وَالْقَلْبِ دَعْنِي أَرَى نَقْمَتَكَ مِنْهُمْ لِأَنِّي لَكَ كَشَفْتُ دَعْوَايَ. رَنَّمُوا لِلرَّبِّ. سَبَّحُوا الرَّبَّ لِأَنَّهُ قَدْ أَنْقَذَ نَفْسَ الْمَسْكِينِ مِنْ يَدِ الْأَشْرَارِ. مَلْعُونُ الْيَوْمِ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ! الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتَنِي فِيهِ أُمِّي لَا يَكُنْ مُبَارَكًا! مَلْعُونُ الْإِنْسَانِ الَّذِي بَشَّرَ أَبِي قَائِلًا: [قَدْ وُلِدَ لَكَ ابْنٌ] مُفْرِحًا إِيَّاهُ فَرِحًا. وَلَيْكُنْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ كَالْمُدْنِ الَّتِي قَلَبَهَا الرَّبُّ وَلَمْ يَنْدَمْ فَيَسْمَعُ صِيَاحًا فِي الصَّبَاحِ وَجَلْبَةً فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ. لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْنِي مِنَ الرَّحِمِ فَكَانَتْ لِي أُمِّي قَبْرِي وَرَحِمُهَا حُبْلَى إِلَى الْأَبَدِ. لِمَاذَا خَرَجْتُ مِنَ الرَّحِمِ لِأَرَى تَعَبًا وَحُزْنًا فَتَفْنَى بِالْخِزْيِ أَيَّامِي؟" (٢٠: ٧-١٨).

وهي بكل تأكيد حول حياة إرميا وما فعله الله له، ولكنها صيغت في لغة من الأمانة الشديدة حتى إن كنائس كثيرة وجدت فيها صعوبة. لكن إرميا مثل أي واحد منا كان يحاول فقط أن يعطي معنى لما كان الله يفعله في حياته. وعندما ندرس هذه الأجزاء نرى أنه كان متأكدًا من عدّة أمور: أن الله حق، وعادل وقوي، ويعلم داخل كل قصة سواء كانت للقلب البشري أم لتحركات الأمم. كما كان متأكدًا بأن إلهًا مثل ذلك سوف يؤكد صدق كلمته وأن كل فرد سوف يرى أن العالم يقوم على العدل وأن نبيه الأمين سوف تثبت صحة نبوءته.

ولابد أن يكون إرميا قادراً على تقديم شهادة تظهر ذلك. أمّا بيت القصيد في آلامه الشخصية هو أنه لم ير أسلوباً واضحاً في ما كان يحدث، وكان طريق الله معه يكسر المألوف، ولم يكن يفعل كما كان يفعل إرميا، والواقع إنه في بعض الأوقات كان إرميا يواجه خصماً كان يغيّر ليس فقط قواعد اللعب بل اللعب ذاته كيفما ومتى يرون له ذلك.

### نسيج إكليل الشوك:

إننا نحتاج أن نري الموقف من خلال وجهة نظر إرميا نفسه. وهناك ثلاثة اختبارات قد اتحدت لكي تسفر عن أزمة الإيمان. أولاً هناك اختبار آلامه الشخصية على أيدي أصحابه، وحالما كرز بدينونة الله تحوّل سكان يهوذا وصاروا ضده. والرسالة التي أتى بها لم تكن من النوع الذي يجب أن يسمعه أي فرد، وحدث أن سكان عناثوث قرّيته خططوا لقتله، وحاول أصدقاؤه المقربون إليه أن يفكروا له في إثارتة لخيانة عظمى، وحتى إخوته خانوه فقالوا شيئاً في وجهه وشيئاً آخر من وراء ظهره. ثم أضير جسدياً، لأن فشحور وهو ناظر أول في بيت الرب ضربه وجعله في المقطرة "وَسَمِعَ فَشْحُورُ بْنُ إِمِيرِ الْكَاهِنِ (وَهُوَ نَاطِرٌ أَوَّلٌ فِي بَيْتِ الرَّبِّ) إِرْمِيَا يَتَنَبَّأُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ. فَضْرَبَ فَشْحُورُ إِرْمِيَا النَّبِيَّ وَجَعَلَهُ فِي الْمِقْطَرَةِ الَّتِي فِي بَابِ بَنِيَامِينَ الْأَعْلَى الَّذِي عِنْدَ بَيْتِ الرَّبِّ" (٢٠: ١-٢). كمت صرح صدثيا بأن يُلقى في جب دار السجن وتُرك لكي يموت في الوحل "أَخَذُوا إِرْمِيَا وَالْقُوَّةَ فِي جُبِّ مَلِكِيَّا ابْنِ الْمَلِكِ الَّذِي فِي دَارِ السِّجْنِ وَدَلُّوا إِرْمِيَا بِحِبَالٍ. وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجُبِّ مَاءٌ بَلْ وَحَلٌّ فَغَاصَ إِرْمِيَا فِي الْوَحْلِ" (٣٨: ١-٦). وقد حدث كل هذا بأسلوب السخرية والاستهزاء (انظر مثلاً في ٦: ١٠)...

أتذكر أنني شاهدت رجلاً كان يحمل لافتة صغيرة بينما كان يتمشى صعوداً وهبوطاً بعد انتهاء الشوط الأول من مباراة لكرة لقدم، وكانت هذه اللافتة تقول: قد اقترب مجيء الرب.. لكن تعليقات الجموع الساخرة كانت لا تكتب، فبدا كأن الرجل صار مظهرًا للضحك. ولا أعتقد أن إرميا كان يختلف عنه لأنه قال عن نفسه: "لَأَيِّ كَلِمَا تَكَلَّمْتُ صَرَخْتُ. نَادَيْتُ: «ظُلْمٌ وَاغْتِصَابٌ!» لَأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ لِي لِلْعَارِ وَلِلسُّخْرَةِ كُلِّ النَّهَارِ". وهكذا نرى صورة حية لإرميا وهو جالس بمفرده بينما يلعبه كل من يمر به. أمّا الجديدة الثانية في ضيق إرميا فكانت مؤيدة برد فعله الشخصي لهذه المعاملة.

ولعل التفسير المتفق عليه لهذا النوع من الاختبار يسير وفق هذه الخطوط: إذا حدث لك أشياء سيئة فهذا دليل على أنك إنسان سيء. لكن ما كان يميّز استجابة إرميا هو أنه لم يقبل هذا المبدأ، ولن يقوم بمساومة استقامته أو اتخاذ الطريق المستقيم والسهل نحو الهروب، بل تمسك باقتناعه بأنه لم يخطيء وقال: "وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَنِي. رَأَيْتَنِي وَاخْتَبَرْتَ قَلْبِي مِنْ جِهَتِكَ" (١٢ : ٣) ثم إنك قلت لي "لَا تَتَّخِذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةً، وَلَا يَكُنْ لَكَ بَنُونَ" (١٦ : ١) وذلك علامة على أنه سوف يأتي وقت تصبح فيه الحياة العائلية مستحيلة، وقد كنت مطيعاً لك. كما أنك أوصيتني بأن لا أبكي مع النائحين ولا أفرح مع المحتفلين "لَأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لَا تَدْخُلْ بَيْتَ النَّوْحِ وَلَا تَمْضِ لِلنَّدْبِ وَلَا تُعَزِّهِمْ" (١٦ : ٥) وقد أطعتك. ولذلك فأنا بريء من أية جريمة، وأنا لا أدين لأحد بما ل بل مثل الخروف البسيط، وقد صليت من أجل هذا الشعب حتى قلت لي بأن أتوقف "وَأَنْتَ فَلَا تُصَلِّ لِأَجْلِ هَذَا الشَّعْبِ وَلَا تَرْفَعْ

لَأَجْلِهِمْ دُعَاءً وَلَا صَلَاةً وَلَا تُلِحَّ عَلَيَّ لِأَنِّي لَا أَسْمَعُكَ" (٧):  
(١٦) وعندئذ توقفت.

ثم ترجيتك بالنيابة عنهم ولم أطلب منك قط أن تأتي بمصيبة عليهم. لكنك أنت الذي أخبرتني أن أكرز لهم بهذه الرسالة، والآن فإني مهدد لأنني أفعل ما أخبرتني بأن أفعله. وحسنًا أستحق كل لعناتهم لو لم أخدمك بأمانة، لكنك تعلم جيداً أنني قد وضعت نفسي في يدك. ويبقى هناك عنصر آخر ضروري لاستكمال دائرة الحيرة، فربما كان إرميا يحاول استحمال الألم بالرغم من عدم استحقاقه له ذلك إذا كان الله يظهر علامة بأنه يفعل حقاً بحسب كلمته. لكن اختبارته عن الله كان غريباً وغير مريح، وكأن الله كان يخزي نبيّه، ذلك لأن كلمات إرميا لم تكن تتحقق بسرعة فصار مشوشاً وكأن الله هو الذي وضعه في تلك الورطة وتركه هناك، وكأن الله قد تعمد أن يخلقه رجلاً للنزاع وقد وُلد غريباً في هذا العالم، ولم يعد الله هو المخبأ بالنسبة له بل هو الرعب وكابوس الليل. ولذلك التمس من سيده الرب أن لا يخذله فصاح قائلاً (إذا كنت أنت هو "يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ" (٢: ١٣) فكيف تكون جافاً معي؟) وهكذا تعلّق إرميا معذباً ومغلوباً على أمره بواسطة ذاك القوي غير المحدود. وفي البداية كان قد اختبر الله كقوة مهددة عارية، وكان كل قرار لكى يبتعد عن المحنة ويقفل فمه كان يتحطم بالكلمة التي لم يستطع أن يكتمها داخله لأنها كانت تحرقه، فإمّا أن يدعها تخرج منه أو تقضي عليه تماماً. أمّا غموض العلاقة فقد انعكست في إجابات الرب له على شكواه.

وهناك إجابتان عاديتان ومستقيمتان: "هَأَنَذَا أَعَاقِبُهُمْ" وسوف أبرك أنت ضد أعدائك "لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ:

هَذَا أَعَابِهِمْ. يَمُوتُ الشُّبَّانُ بِالسَّيْفِ وَيَمُوتُ بَنُوهُمْ وَبَنَاتُهُمْ بِالْجُوعِ. ٢٣ وَلَا تَكُونُ لَهُمْ بَقِيَّةٌ لِأَنِّي أَجْلِبُ شَرًّا عَلَى أَهْلِ عَنَّاوُثَ سَنَةَ عِقَابِهِمْ" (١١ : ٢٢ ، ٢٣)، "ثَرَوْتُكَ وَخَزَائِنُكَ أَدْفَعُهَا لِلنَّهْبِ لَا يَثْمَنُ بَلْ بِكُلِّ خَطَايَاكَ وَفِي كُلِّ تَخُومِكَ. وَأَعْبُرَكَ مَعَ أَعْدَائِكَ فِي أَرْضٍ لَمْ تَعْرِفْهَا لِأَنَّ نَارًا قَدْ أَشْعَلْتُ بِغَضَبِي تُوقَدُ عَلَيْكُمْ" (١٥ : ١٣ ، ١٤). ثم تأتي إجابة محفوفة بالمخاطر وتجعل إرميا يبتهج لأن الأمور سوف تسوء أكثر فماذا سوف يفعل إذن؟ "إِنْ جَرَيْتَ مَعَ الْمُشَاةِ فَاتَّعْبُوكَ فَكَيْفَ تُبَارِي الْخَيْلَ؟ وَإِنْ كُنْتَ مُنْبَطِحًا فِي أَرْضِ السَّلَامِ فَكَيْفَ تَعْمَلُ فِي كِبْرِيَاءِ الْأَرْدُنِّ؟" (١٢ : ٥) أمّا الإجابة الرابعة فهي توبيخ له لأنه تكلم بكبرياء لا معنى له ولكن هناك وعداً بأنه إذا تاب فسوف يجعله الله سور نحاس "لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: إِنْ رَجَعْتَ أَرْجِعْكَ فَتَقِفُ أَمَامِي. وَإِذَا أَخْرَجْتَ الثَّمِينَ مِنَ الْمَرْدُولِ فَمِثْلَ فَمِي تَكُونُ. هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ. وَأَجْعَلْكَ لِهَذَا الشَّعْبِ سُورَ نَحَاسٍ حَصِينًا فَيَحَارِبُونَكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ لِأَنِّي مَعَكَ لِأَخْلِيصَكَ وَأُنْقِذَكَ يَقُولُ الرَّبُّ. فَأُنْقِذَكَ مِنْ يَدِ الْأَشْرَارِ وَأَفْذِيكَ مِنْ كَفِّ الْعُتَاةِ" (١٥ : ١٩ - ٢١). وكان رد فعل إرميا إزاء ثلاث الإجابات الأخيرة هو الصمت، ثم اندفع إرميا ضد الله المبهم وسقط متحيراً ومرضضاً. وبأي حساب فإن هذه من أصعب الأجزاء في الكتاب المقدس، لكنها جزء من كلمة الله، وهناك دروس نتعلمها منها بالرغم من عدم سهولتها. ولا يجب أن نعتبر بأن اختبار إرميا غريب عنا، وقد يكون هو الحالة الأخيرة، ولكننا إذا تطلعنا إلي الخلف فسوف نجد أوقاتاً كان كل معنى وشكل لحياتنا يحمل استفهاماً وكأن الله هو المجرب والعدو أكثر منه حياً وصدقة.

ولكي أعيد التأكيد على الموضوع فإن إرميا كان أقل تركيزاً على معاناته الشخصية من تركيزه على انهيار النظام في عالمه. والشهيد يستطيع أن يتحمل النار والعذاب والإعدام إذا استطاع أن يرى بوضوح سبباً لما يتحمله، لكن الذي لا يُحتمل هو ما لا معنى له بتاتاً. أمّا التضحية التي لا هدف لها والتي لا تخدم قصداً هنا وهناك والتي لا تعتبر تضحية على الإطلاق.. فمثل هذا الموت لا يطاق ولا يحتمل.

### الله أمام المساءلة:

إن رغبة إرميا لحفظ النظام هي التي أعطته الشجاعة لكي يواجه الله، وهذا هو الإيمان الذي يتكلم بلهجات غير مألوفة، وكان إرميا مولعاً بالجدل. كانت هناك قضية تقدم وأخرى يجاب عنها، وكان الجو أشبه بالمحكمة. وقدم النبي نقاطه بكل قوة، وما يجب أن نلاحظه أن أساس كلامه ليس العجرفة بل شخص الله. فالله عادل وأمين وقادر على كل شيء. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن لا يكرم كلامه؟..

ولقد افترض إرميا منذ البداية بأنه إذا طرح حالته أمام الله فسوف تثبت صحة الرب: "أَبْرُ أَنْتَ يَا رَبُّ مِنْ أَنْ أُخَاصِمَكَ" (١٢: ١)، لكنه استمر في حدود المنطق وقال: "لَكِنْ أَكَلِمُكَ مِنْ جِهَةِ أَحْكَامِكَ: لِمَاذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الْأَشْرَارِ؟" اطمأنَّ كُلُّ الْغَادِرِينَ غَدْرًا" وبعد ذلك سأل الرب يزن شهادته مقابل شهادات أعدائه وقال: يا رب اسمع لقولي واصغ لما يقوله أعدائي عني، فهل الشر هو أجرة الصلاح؟ كلا بالطبع طالما أنك بعيد عن العالم... ولكنهم حفروا لي حفرة لأسقط فيها... يا رب ليتك تجيبني وتتجاجج معي، وأرني ما هو خطأي... وربما نقف أمام تجربة اعتبار هذا الكلام بمثابة شكوى مثيرة أو عجز تجديفي للإيمان، وبالرغم من ذلك فإن الكتاب

المقدّس يبدو أنه يشجع هذا الحوار الشجاع مع الله. وقد سبق أن ساوم ابراهيم الله حول عدد الأبرار في سدوم كما لو أنه كان يقوم بعملية مساومة في سوق. ويعقوب الذي صار مع ملاك ولم يدعه ينصرف حتى يباركه.

والمرأة الفينيقية التي لم تقف عند حد رفض الرب يسوع لها واعترفت بأنها قد تكون من الأمم الكلاب إلا أن الكلاب تأكل من فتات أربابها. وبقدر ما أستطيع أن أخبرك به فإن الله يفرح بذلك، ويقول كما أمر أيوب: "شَدَّ حَقْوَيْكَ كَرَجُلٍ (قف علي قدميك)، أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمْنِي (أجنبي)" (أي ٤٠: ٧). هناك نوع من الإيمان يعتبر مجرد فضيلة، ومن الأدب الجم أن تقول لا للرب دون مجادلة معه، وربما يدل هذا على أنك لا تريد أن تأخذ مواعيد الله ولا صفاته مأخذ الجد. وأحياناً يبدو أنه في منتهى التقوى عندما تقول: "لتكن إرادتك" بينما يفضل الله ذاك الذي يدخل معه في جدل. ومن المهم أن واحداً من أمثلة الرب يسوع عن الصلاة كان مشبهاً بالقرع على باب مغلق في منتصف الليل طلباً للخبز بينما طلب من القارع أن ينصرف، لكنه استمر يقرع الباب ولم يتقاعد في خنوع.

### لا تكن لطيفاً:

يعلمنا إرميا شيئاً آخر. كانت علاقته بالرب تتميز بالأمانة المؤلمة، فلم ينكر مشاعره مهما كانت مدمرة. وأعتقد أن إرميا كان على وشك الشك والفشل، وقد كان فعلاً. ولكني أسمع الآن كلمات غاضبة كقوله: "قد أقنعتني يا رب". وقد وردت بالترجمة الإنجليزية بمعنى قد خدعتني! - ثم هناك تفاقم متزايد في سؤاله لماذا "كَانَ جُرْحِي عَدِيمَ الشِّفَاءِ؟" (١٥: ١٨) وهناك من الأجزاء الكتابية الأكثر ظلاماً عندما يلعن يوم مولده، وهنا لا يبدو للكلام معنى بعدما أنكر كل شيء،

ويستمر الله صامتاً، ويرفض إرميا دعوته بل وحياته. ولا يوجد ما يمكن أن يقال سوى النوح العظيم والشفقة على كل شيء.

وكما قال أحدهم عن إرميا إنه رفض أن يكون لطيفاً وأخذته ثورة عارمة ضد انحسار النور. إن هذه الأمانة في التعبير هي التي تساعدنا لكي نتقبل صيحات إرميا للانتقام. فمن جانب نحن نفهم أنه يوجد هنا رجل قد انفتحت حياته أمام الله كما نرى أن اللعنات هي مزيج بشري جداً من رغبتين، إحداهما من أجل الانتقام الشخصي ضد أعدائه، والأخرى لكي يرى اسم الله ممجداً وباراً: "حَتَّى مَتَى تَنُوحُ الْأَرْضُ وَيَبْسُ عُشْبُ كُلِّ الْحَقْلِ؟ مِنْ شَرِّ السَّاكِنِينَ فِيهَا فَنَيْتِ الْبَهَائِمُ وَالطُّيُورُ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَرَى آخِرَتَنَا (لايري ماذا نفعل؟)" (١٢ : ٤). وهذه رغبة لكي يجعل الأمة تأخذ الله مأخذ الجد. ثم قوله: "أَنْتَقِمُ لِي مِنْ مُضْطَهَدِيَّ. بِطُولِ أَنْاتِكَ لَا تَأْخُذْنِي" (لا تتعامل معهم بطول أناتك) (١٥ : ٥) وهذه رغبة واضحة لترضية الذات. وهاتان الرغبتان منسوجتان معاً بحذق حتى يصعب عادة فصلهما.

ولكن إرميا استطاع على الأقل أن يعيش في توتر ولم ينكر قط أنه حزمة من المتناقضات. كما لم يكن معسول اللسان حتى يظهر كراهيته هكذا نقية أو بدون رغبة، ولكنه حتى في محادثاته مع الله كان يظهر كل ما في نفسه وليس جزءاً منه، وفي خمس مرات كان يذكر نفسه بأن الله "يعلم". وتكمن هنا راحة عظيمة، فقد فتحت كل غرفة ونزعت الأقفال، وتدرك فجأة بأنه لا مجال للدعاء أو لإخفاء شيء.. كأن تقول مثلاً: "لا أريد الصلاة.. بل إنني أكرها فعلاً.. أنا خائف في قلبي.. العبادة ثقيلة عليّ.. أنا أكبر من أن أطلب



الغفران.. أنا أشعر بأنك يا رب قد أخذتني.. لقد خنت المسيح ..". إن الله ليس هكذا هشاً حتى يتأثر بما نخبره به بينما هو يعلمه منذ زمن بعيداً!

### هذا قول صادق:

هناك درس ثالث يمكن أن نتعلمه. بالرغم من أن هذا الجزء وأجزاء أخرى مملوءة بالشك والفشل إلا أنها تحتوي على كلمات الإيمان: "إِشْفِينِي يَا رَبُّ فَأَشْفَى" (١٧: ١٤).. "وُجِدَ كَلَامُكَ فَأَكَلْتُهُ، فَكَانَ كَلَامُكَ لِي لِلْفَرَحِ وَلِبَهْجَةِ قَلْبِي" (١٥: ١٦).. "وَلَكِنَّ الرَّبَّ مَعِيَ كَجَبَّارٍ قَدِيرٍ" (٢٠: ١١)... "رَنَّمُوا لِلرَّبِّ، سَبِّحُوا الرَّبَّ، لِأَنَّهُ قَدْ أَنْقَذَ نَفْسَ الْمِسْكِينِ.." (٢٠: ١٣).

لقد حاول إرميا أن يمسك معاً ظلامه الداخلي بنور الله، ولذلك تصطم معاً لغة الشك بالإيمان، والفوضى بالنظام، ولا نظن أن آيات الرجاء قد زرعت بواسطة كاتب تقوي، بل هي جزء من أمانة إرميا، ذلك لأن الحق "كله" هو أن الله كذلك حتى لو لم نشعر نحن به. وفي أوقات اليأس فإن كلمات الإيمان العظيمة تحملنا، وهناك فائدة عظيمة عندما تخترق الصفوف وترتدي ملابس الآخرين حتى يأتي الوقت الذي تجد أنها مناسبة لك. وهكذا فإن أنسب وقت تذهب فيه إلى الكنيسة هو عندما تشعر بأنك لا تريد الذهاب، وعندما تبدو الحياة بلا معنى، وعندما تشعر بمرارة إزاء الفرح الذي يظهر على المؤمنين، وعندما لا تستطيع أن تضع اسمك على أي بند من الإيمان. وهذا هو الوقت الذي نحتاج فيه لكي نتعلق بما نأمله عن بعد وما يبدو ممكناً وحقيقياً، فالمسيح مات والمسيح قام والمسيح سوف يأتي ثانية! وهكذا حاول إرميا

أن يجد موطناً لقدميه علي الصخر وقد أصر بأسنانه وقال:  
سبحوا الرب! لأنه ينقذ المسكين من قوة الأشرار.

## حصاد الألم:

كل هذا يبدو بعيداً جداً عن ترنيمة الأطفال التي تقول:

في تجارب كل نوع

سبح الله لأنني أجد دائماً

أن حديثاً قليلاً مع يسوع

يجعل كل شيء على ما يرام

إن كل احتجاجات إرميا هي نوع آخر من الصلاة كما أنها تبدو ضد المسيحية. والواقع إذا تقبلناها جيداً فإنها سوف تغذي نفوسنا بحق. وأود أن أذكر ثلاثة تعليقات مختصرة حول صرامة هذه الأقوال كلها. **أولاً:** لا يجب أن نقطع دائرة اختبار ألم إرميا، وقد لاحظ كثيرون من الدارسين التشابه بين هذه الاعترافات وبين مزامير الرثاء. وربما لأننا نرفض في أعماقنا مواجهة حد حافة الإيمان الحادة لذلك نسعد باستحضار مزامير المدح في كتب ترانيمنا ونتجاهل تماماً مزامير الرثاء.

ولكن الأخيرة تمثل حوالي ٤٠ بالمائة من سفر المزامير وربما يدعى المسيحي المعاصر بعدم وجودها ولكن ماذا يخيفنا؟ وبالطبع فإن المسيحي مثل أي شخص آخر يفضل أن يسمع عن العزاء أكثر من فقدان وعن الإيمان أكثر من الفشل. لكن إن كنا نراوغ بسرعة حول الصليب لكي نصل إلي القبر الفارغ فإننا نحرم أنفسنا من اختبار الآلاف من المؤمنين وغير المؤمنين، وفي النهاية من اختبار الرب يسوع نفسه.

**ثانياً:** يجب أن نؤكد بأن هناك عنصراً في إرميا لا يجب عنه سوى قيامة الرب يسوع، فالله يعمل ويتمم كلمته ولن يترك

نفس عبده في الهاوية بل يأتي يوم عيد القيامة لكي يبين أن هذا حق.

ثالثاً: لقد تقبل الله هذه الاحتجاجات الخارجة من القلب، وهي لاتزال موجودة في كتابنا المقدس ولم تخضع لرقابة ما، بل عرفها الله ويقدمها لنا كجزء من ثمار خدمة إرميا. وبدلاً من أن نستهن بها يجب أن نحترمها لأنها مقدّسة. ونستطيع أن نبدأ لكي نرى كيف ظن الناس أن يسوع كان إرميا بعدما عاد إلى الحياة، ذلك لأنه مثل سيده كان مدعواً لكي يحمل في جسده كل ألم وتشويش لعالمه. فلندعه إذن يقف هناك ممثلاً لحيرة إسرائيل.. ولحيرتنا نحن، وليقف نيابة عن كل من انهار عالمه ووجد الحياة بلا معني، وعن كل حزين بسبب العمل الذي لا يحمل ثمراً، والحالة التي صارت هزءاً والسنوات التي ضاعت. وليقف أيضاً عن كل مَنْ سوف لا يقول نصف الحقيقة المريح، وعن كل محطم بسبب صمت الله ولكنه يتوق إلى اليوم الذي يعلن فيه نفسه.

## الفصل السابع

### التكلم برؤيا كاذبة

"فِي ابْتِدَاءِ مُلْكِ يَهُوْيَاقِيمَ بْنِ يُوشِيَّا مَلِكِ يَهُودَا، صَارَ هَذَا الْكَلَامُ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ قَائِلاً: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ لِي: اصْنَعْ لِنَفْسِكَ رُبُطًا وَأَنْبَارًا، وَاجْعَلْهَا عَلَى عُنُقِكَ" (٢٧: ١، ٢)

"وَحَدَّثَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي ابْتِدَاءِ مُلْكِ صِدْقِيَا مَلِكِ يَهُودَا، فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ، فِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ، أَنَّ حَنْنِيَا بْنَ عَزُورِ النَّبِيِّ الَّذِي مِنْ جِبْعُونَ: كَلَّمَنِي فِي بَيْتِ الرَّبِّ أَمَامَ الْكَهَنَةِ وَكُلِّ الشَّعْبِ قَائِلاً: هَكَذَا تَكَلَّمَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ قَائِلاً:

قَدْ كَسَرْتُ نِيرَ مَلِكِ بَابِلَ. فِي سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أُرِدُّ إِلَى هَذَا  
 الْمَوْضِعِ كُلِّ آيَةٍ بَيْتِ الرَّبِّ الَّتِي أَخَذَهَا نَبُوخَدْنَاصِرُ مَلِكُ بَابِلَ  
 مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِلَ. وَأُرِدُّ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ  
 يَكْنِيًا بَنَ يَهُوَيَاقِيمَ مَلِكِ يَهُودَا وَكُلِّ سَبْيِ يَهُودَا الَّذِينَ ذَهَبُوا  
 إِلَى بَابِلَ، يَقُولُ الرَّبُّ، لِأَنِّي أَكْسِرُ نِيرَ مَلِكِ بَابِلَ. فَكَلَّمَ إِرْمِيَا  
 النَّبِيَّ حَنِيَا النَّبِيَّ أَمَامَ الْكَهَنَةِ وَأَمَامَ كُلِّ الشَّعْبِ الْوَاقِفِينَ  
 فِي بَيْتِ الرَّبِّ، وَقَالَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ: آمِينَ. هَكَذَا لِيَصْنَعِ الرَّبُّ.  
 لِيُقِمِ الرَّبُّ كَلَامَكَ الَّذِي تَنَبَّأَتْ بِهِ، فَيَرُدَّ آيَةَ بَيْتِ الرَّبِّ وَكُلَّ  
 السَّبْيِ مِنْ بَابِلَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. وَلَكِنْ اسْمَعْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ  
 الَّتِي أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهَا فِي أذُنِكَ وَفِي آذَانِ كُلِّ الشَّعْبِ. إِنَّ  
 الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلِي وَقَبْلَكَ مِنْذُ الْقَدِيمِ وَتَنَبَّأُوا عَلَى أَرْضِ  
 كَثِيرَةٍ وَعَلَى مَمَالِكٍ عَظِيمَةٍ بِالْحَرْبِ وَالشَّرِّ وَالْوَبَاءِ. النَّبِيُّ الَّذِي  
 تَنَبَّأَ بِالسَّلَامِ، فَعِنْدَ حُصُولِ كَلِمَةِ النَّبِيِّ عُرِفَ ذَلِكَ النَّبِيُّ أَنَّ  
 الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَهُ حَقًّا. ثُمَّ أَخَذَ حَنِيَا النَّبِيَّ النَّيِّرَ عَنْ عُنُقِ إِرْمِيَا  
 النَّبِيِّ وَكَسَرَهُ. وَتَكَلَّمَ حَنِيَا أَمَامَ كُلِّ الشَّعْبِ قَائِلًا: هَكَذَا قَالَ  
 الرَّبُّ: هَكَذَا أَكْسِرُ نِيرَ نَبُوخَدْنَاصِرِ مَلِكِ بَابِلَ فِي سَنَتَيْنِ مِنَ  
 الزَّمَانِ عَنْ عُنُقِ كُلِّ الشُّعُوبِ. وَأَنْطَلَقَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ فِي  
 سَبِيلِهِ. ثُمَّ صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى إِرْمِيَا النَّبِيِّ، بَعْدَ مَا كَسَرَ  
 حَنِيَا النَّبِيُّ النَّيِّرَ عَنْ عُنُقِ إِرْمِيَا النَّبِيِّ، قَائِلًا: اذْهَبْ وَكَلِّمْ  
 حَنِيَا قَائِلًا: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: قَدْ كَسَرْتُ أَنْيَارَ الْخَشَبِ وَعَمِلْتُ  
 عِوَضًا عَنْهَا أَنْيَارًا مِنْ حَدِيدٍ. لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ  
 إِسْرَائِيلَ: قَدْ جَعَلْتُ نِيرًا مِنْ حَدِيدٍ عَلَى عُنُقِ كُلِّ هَؤُلَاءِ  
 الشُّعُوبِ لِيَخْدِمُوا نَبُوخَدْنَاصِرَ مَلِكِ بَابِلَ، فَيَخْدِمُونَهُ وَقَدْ  
 أُعْطِيَتْهُ أَيْضًا حَيَوَانَ الْحَقْلِ. فَقَالَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ لِحَنِيَا النَّبِيِّ:  
 اسْمَعْ يَا حَنِيَا. إِنَّ الرَّبَّ لَمْ يُرْسِلْكَ، وَأَنْتَ قَدْ جَعَلْتَ هَذَا  
 الشَّعْبَ يَتَّكِلُ عَلَى الْكَذِبِ. لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَآنذَا

طَارِدُكَ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ. هَذِهِ السَّنَةُ تَمُوتُ، لِأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ  
بِعِصْيَانٍ عَلَى الرَّبِّ. فَمَاتَ حَنَنِيَا النَّبِيُّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي  
الشَّهْرِ السَّابِعِ" (٢٨: ١-١٧).

إننا نقف في ساحة الهيكل في وسط الشعب، وها نبي  
يتكلم ويأتي بكلمات يهوه نفسه والكهنة والشعب يصغون  
والرسالة منعشة بروح الله، ومعنى اسم النبي أن الرب حنان  
(كريم) ويتفق مع أقوال النبي لأنه أخبر بالقصة القديمة عن  
أمانة الله مع شعبه، وهي التي تتلخص في الكلمة الجميلة  
"شالوم" أي سلام، ونجاح، وأمان. ولئن عانت يهوذا من  
صدمة ما لكن الله الذي قاد أولاده من مصر من بيت العبودية  
سوف يعود بالذين رحلوا إلى بابل ثانية إلى أرض الموعد.  
وعندما يأتون سوف يأتي معهم الملك الصغير يكنيا كما  
سوف تسترد الأواني التي اغتصبها الوثنيون ظلماً، وسوف  
يعم السلام ويتأكد الصوت وهكذا نستشعر يقين الإيمان كما  
صاح حننيا أنه سوف يحدث في غضون عامين! "فِي سَنَتَيْنِ  
مِنَ الزَّمَانِ أَرُدُّ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ كُلَّ آيَةِ بَيْتِ الرَّبِّ الَّتِي  
أَخَذَهَا نَبُوخَذْنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى  
بَابِلَ" (٢٨: ٣).

وسوف ينكسر نير بابل كما انكسر قديماً نير فرعون، والله  
كريم ومنعم وسوف لا يطرد شعبه. أمين. ليكن هكذا كما  
تكلم الرب وشكراً له. إننا نصغي إلى حنانيا بن عزوز النبي  
الذي من جبعون (٢٨: ١). إن معظم أقواله كانت كاذبة وكأنها  
حدث عرضي. وقد لا نحتاج أن نقرأ كتب لكي نستكشف ما  
وراء هذه الكلمات، فمنذ أربعة أعوام أي في عام ٥٩٧ ق. م  
زحفت جيوش بابل على أورشليم ونجست المكان ودمرت  
الهيكل وأخذ يهويآكين إلى السبي، وتم ترحيل العائلة

الملكية والرؤساء وقادة الشعب والعمال المهرة مع الملك، وأقام نبوخذ نصر صدقيا على عرش يهوذا وقد حذره بشدة حتى لا يتورط في أية مؤامرة ضد بابل ووعده بصرامة أنه سوف يعود إذا سمع اضطرابات تثير الشك.

وكان هناك نشاط حاد بين الأنبياء على إثر الترحيل الأول وحاول كل واحد أن يكون له نصيب في العمل، ولا سيما وأن الأنبياء هم الذين يظهر لهم الله خطته بصفة رسمية، ومن واجبهم أن ينبهوا الشعب وقد وعدوا بعودة سريعة من السبي، وبعد سنتين تعود كل الأمور إلى حالتها الطبيعية.

### الحق والكذب:

لا نندهش عندما نعلم أن إرميا لم يتفق مع أقوالهم. وبحسب أقواله هو أن السبي سوف يستغرق مرحلة طويلة ولن يكون هناك عودٌ سريع. والواقع أنه ما لم تتحول الأمة عن الخطية فهناك مصائب أكثر. وهكذا ظهر تناقض واضح ولا عجب إذن عندما تساءل الناس عن الصواب. أمّا من جهتنا نحن فإذا تطلعنا إلى الخلف لا نجد هذا التساؤل، فنحن نعلم أن إرميا قد تكلم بالحق وقد أكدت الأحداث صدقه، وعلى أي الأحوال فعندنا سفر إرميا ولا يوجد لدينا سفر حننيا، إذن نحن نعلم الإجابة الصحيحة.

لكن بالنسبة للشعب وقتئذ لم تكن الإجابة الصحيحة واضحة، فقد ادّعى كل الأنبياء أنهما يتكلمون باسم يهوه وكان كلامهم يبدو مستقيماً، وقد استخدموا أعمالاً رمزية وحدثت لهم غفوات ورأوا رؤى وحلموا أحلاماً كما يحدث تماماً مع الأنبياء. وحسناً عندما نطلب من النبي الحقيقي أن يقف، ولكن إذا وقف كل منهم فيجب إذن أن نمتحنهم جميعاً. ولاتزال هذه المشكلة قائمة معنا، وعندما يقول الناس إنهم

يتكلمون نيابة عن الله فإنك تستطيع أن تنظر إليهم من وجهتي نظر مختلفين، فقد يعتبر واحد أن مثل هذا النبي له "موهبة عظيمة". بينما يعتبره آخر واحداً من الذين يحبون نغمة صوته.. أو ما يعتبر عند أحدهم أنه "من باب السلطة" قد يعتبره آخر نوعاً من "التعصب العقائدي"، وما يراه البعض "مسحة حقيقية من الله" يصطدم البعض الآخر "بوسائل التلاعب" المستخدمة. مثلما نسمع هذه التعليقات الآتية:

- كم كان الواعظ حماسياً هذا المساء!

- هل تقصد أنه لم يتوقف عن إحزاننا؟

- يا لها من رسالة موحى بها!

- إنها مشوشة وغامضة!

- إنه يتكلم بإقناع مستمر.

- ربما تعني أنه يصيح كثيراً ويضرب على المنبر.

ولا توجد وسيلة لتفادي البديلين مع أن ذلك يسبب مشاكل في بعض المواقف فقط. وهناك بعض الأمور التي لا تحتاج فيها إلى نبي، وعلى سبيل المثال فإن كل إسرائيلي كان يعلم أن الله وحده هو المعبود وأنه إله قدوس وغيور وأنه أمين لمواعيده وأنه عمل من خلال التاريخ.

وبالمثل فإن المسيحيين ليسوا بحاجة إلى إعلان خاص لكي يخبرهم بأنه يجب عليهم أن يغفروا لأعدائهم أو يصلّوا من أجلهم أو أن يمتنعوا عن الزنا، وربما تحتاج إلى تذكرة قوية أو إلى كلمة تحدٍ بخصوص هذه الأمور. والواقع أن مثل هذا الكلام المباشر هو مَن علامات النبي الحقيقي لكن الاعتماد على "كلام خاص من الرب" كما لو أنه لم يخبرك بما تحتاج إلى معرفته بعد فذلك علامة على عدم النضج أو عدم الإخلاص أو الكسل. أمّا مشكلة إسرائيل - ونحن أيضاً - فهي

تقع في دقة التفاصيل، وما هي الحقيقة العامة التي تنطبق فعلاً على هذا الموقف؟ لقد كان المستقبل بالنسبة لشعب يهوذا غير معروف، ولا يمكن قراءته بسهولة من الماضي، فهل كان على الأنبياء أن يركزوا على صفات الله كالمحرر ومن ثم يتكلمون عن العودة؟ أو يركزون على حقيقة أنه يعاقب الخطية ويكرزون باستمرار الدينونة؟ وهكذا كانت الحاجة ضرورية إلى كلمة خاصة طازجة من الرب في مثل هذا الموقف. وماذا سوف يحدث بالضبط بخصوص أواني الهيكل؟ ولعلنا نواجه مآزق مماثلة، وكثيراً ما يتم سؤالنا من أجل نصيحة صديق أو الصلاة من أجله في الموقف المحيرة. وعلى سبيل المثال فكلنا متأكدون أن الزواج هبة من الله، وفي الوقت ذاته نعلم أن ليس كل مسيحي متزوجاً.

فهل يصلح الزواج لمثل هذا الشخص الذي أمامنا الآن؟ وكيف نعلم؟ ثم هل الآن؟ وهل لهذا الرجل؟ وكذلك الله يريد الكمال والشفاء لكل واحد، لكن ليس كل فرد يتمتع بالشفاء الجسدي تماماً، فهل سوف يشفي هذا الصديق؟ وهل يشفي من هذا المرض بالذات؟ وهل الآن في هذه اللحظة؟ وفي حالة أخرى، نحن متأكدون أن الله أعطانا مواهب لاستخدامها. لكن ماذا يخبرني هذا بخصوص طلب الوظيفة التي يتقدم إليها صديقي؟ وهل سوف يمارس مواهبه بهذا الأسلوب الخاص؟ وهل يعني ذلك هذه الشركة بالذات في هذا المكان من القطر؟ لا عجب إذن أننا نحتاج إلى كلمة مباشرة تعبر بنا غموض اتخاذ القرار. لقد تقدمت شابة إلى أحدهم وقالت له: "إن الله قد أخبرني بأن أتزوجك" فأجابها قائلاً: "لكنه لم يخبرني أنا بذلك"... وربما نحسد إيليا في



معارضته ضد أنبياء البعل، ذلك إن كنا نقدر على الاتكال فقط على السماء لكي تجيب برعد صاحب فتحدد لنا المستقبل. وهذا يعود بنا إلى حننيا في الهيكل، فلم يكن هناك وعيد صاحب أو صاعقة في تلك المناسبة، ولم يكن هناك اختبار خارجي ليكشف النبي الكذاب في مواجهته لإرميا، ذلك لأننا نتكلم عن الله الذي يعطي كلمته الحية إلى كائن بشري، وهذه المسألة شخصية بطبيعتها وليست ميكانيكية، وهذا يعني أن الرسالة سوف تحمل باستمرار علامات محددة للشخصية البشرية وكان الكلمة "الخام" سوف تصل إلينا بعد "طهيها".

كان هناك القليل على السطح لكي نختار بين اثنين من الأنبياء. وتقول القصة إن إرميا صنع نيراً خشبياً كرمز للنير الذي سوف يضعه نبوخذ نصر على الشعوب الخمسة الصغيرة التي سوف تجرؤ على التمرد عليه (٢٧: ١ - ١٥) وكانت كرازته أن الأمل في البقاء كان يعتمد على الإذعان للحكم البابلي واتباع سياسة الشرق الأوسط. وهذه هي الرسالة التي عارضها حننيا بكلامه، كما قام بعمل رمز وأخذ النير من على عنق؟ إرميا وحطمه بطريقة مسرحية وقال: هكذا سوف يحطم يهوه نير نبوخذ نصر! وهنا تأثر الجميع إذ صار كلمة مقابل كلمة وعلامة مقابل علامة.

### التكلم باسم الرب:

لم يقدر أحد أن يتأكد من هو النبي الذي تكلم بالصدق ومن الذي تكلم كذباً في ذلك اليوم. أمّا الاختبار المثالي الذي نجده في سفر التثنية فيقول إن النبوة الكاذبة هي التي لا تحدث ولا تصير "فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ فَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ

بِهِ النَّبِيُّ فَلَا تَخَفُ مِنْهُ" (تث ١٨ : ٢٢)، ولا نستطيع الحكم بهذا المقياس وقت النطق بالنبوة. فهل معنى ذلك أننا لن نتعلم شيئاً من هذه الحادثة سوى أن ننتظر ونرى؟.

لا أظن ذلك، بل يحمل هذا الجزء الكثير لكي يتعلمه كل مَنْ يأخذ على عاتقه أن يتكلم باسم الرب، وينطبق ذلك على مَنْ يركز وكل من يخدم في مختلف الاجتماعات، ولكل مَنْ يريد أن يفهم ما يقوله الله الآن. وربما أول نقطة تؤخذ في الاعتبار هي مدى الخطورة على كل مَنْ يدّعي أنه يتكلم باسم الرب. وكثيرون (وربما معظم) من أنبياء العهد القديم دخلوا السجون. ولا شك من شدة ضغط القول بما يريده الناس أو يتوقعونه، ومن الصعب جداً الاحتفاظ بالاستقلالية أو الاستقامة في مثل هذه الظروف. في حين أن الاحتفاظ بالاستقلالية بالنسبة للخادم أمر عظيم وخطير... بمعنى أن الخادم الذي "يستقل" برسالته دون الخضوع للناس أو المعتقدات المختلفة هو الخادم الصحيح والمستخدم من قبل الله وهو الذي لا يتلون بالظروف المحيطة. وهذه الاستقلالية تجعله يصغي في سكون لصوت الله، هذا الصوت الذي قد لا يتكلم بسرعة فور طلبه.

**والدرس الثاني** الذي نستخلصه من الصدام مع حنيا هو أن استقبال كلمة الله هو عمل حساس ورقيق جداً وليس كما يبدو من الوهلة الأولى. وعلى الرغم من أن الله هو المتكلم إلا أن العامل البشري متضمن في كل نقطة، ولذلك هناك كل فرصة لتشويه الرسالة. لقد كرز حنيا بكلمة النعمة لكن إرميا اعتبرها خارجة عن خط صفات النبوات التي اختصت بالدينونة والتي أعطيت بواسطة الأنبياء "مُنذُ الْقَدِيمِ" (٢٧ : ٨، ٩) وهنا يضع إرميا حذراً. وبالطبع لم ينكر أن الله

يستطيع أن يفعل "شيئاً جديداً" ولكن إذا كانت الرسالة (الجديدة) بعيدة تماماً عن الخط السابق فربما كان يجب على حنيا أن يفكر بحرص حول رسالته، وربما كان يعتبر احتمال الخطأ في حصوله عليها. ومن المهم أن استجابة إرميا في البداية كانت "آمِينَ. هَكَذَا لِيَصْنَعِ الرَّبُّ. لِيُقِمِ الرَّبُّ كَلَامَكَ الَّذِي تَنَبَّأَتْ بِهِ، فَيَرُدَّ آيَةَ بَيْتِ الرَّبِّ وَكُلَّ السَّبْيِ مِنْ بَابِلَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ" (٢٨: ٦).

ولا يجب أن نفترض كما فعل آخرون بأن إرميا كان يتكلم بتهكم، بل كان منفتحاً حقاً لإمكانية ذلك واستطاع أن يقول: "أرجو أن تكون على حق" ولم يقل: "أنا بكل تأكيد الذي على حق" وعندما كسر حنيا نير الخشب كنا نتوقع رد فعل سريعاً من إرميا لكن ذلك لم يحدث منه، بل ذهب "في سَبِيلِهِ" (٢٨: ١١) ليطلب الرب ثانية، ثم في وقت لاحق أخبر إرميا حنيا أن النير الخشبي الذي كسره سوف يستبدل بنير حديدي. لماذا؟ ربما لأن إرميا أدرك أنه بالرغم من كل شيء فقد كان قابلاً للخطأ، والله حر وقادر على كل شيء.

وهل من الممكن أن إرميا لم يبصر جيداً أثناء تلك اللحظة التي كان الله يعمل فيها شيئاً جديداً؟ إن مثل هذه الاعتبارات يجب أن تولد فينا رعباً صحيحاً ضد أن نكون متمسكين بأفكارنا وعقائدنا أكثر من اللازم. والقصة تؤكد كذلك على خطورة التكلم باسم الرب فليس ذلك بالأمر التافه. ولا يقدم الأنبياء مجرد آراء أو قرارات اختبارية، ولكن الأمر يتعلّق إمّا بالحق أو بالكذب، وهناك واحد على حق والآخر مخطيء. والموقف كله صار له بُعد مسرحي جديد ذلك عندما ندرك بأن حنيا كان

في الواقع مجدفاً واستعمل اسم الرب باطلاً، ومهما كان شاباً وسيماً إلا أنه تجاسر أن يضع كلاماً في فم الرب. والنبوة الحقة هي إعلان حق الله، لذلك فإن بقية النبوة هي إما أنها سوف تتحقق أم لا، فإذا كانت حق الله فهي مرتبطة بالواقع، ولن تكون مجرد صورة جميلة أو فكر مبارك... وبالمثل فإن الاختبار الثاني لصحة النبوة هو تأثيرها على السامعين لها، فالنبوة التي تحوّل الناس عن الله هي نبوة كاذبة والنبوي يستحق الموت "إِذَا قَامَ فِي وَسْطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلْمًا وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً وَلَوْ حَدَّثْتَ الْآيَةَ أَوْ الْأَعْجُوبَةَ الَّتِي كَلَمَكَ عَنْهَا قَائِلًا: لِنَذْهَبُ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُهَا وَنَعْبُدْهَا فَلَا تَسْمَعُ لِكَلَامِ ذَلِكَ النَّبِيِّ أَوْ الْحَالِمِ ذَلِكَ الْحُلْمَ لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهُكُمْ يَمْتَحِنُكُمْ لِيَعْلَمَ هَلْ تُحِبُّونَ الرَّبَّ إِلَهُكُمْ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ. وَرَاءَ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ تَسِيرُونَ وَإِيَّاهُ تَتَّقُونَ وَوَصَايَاهُ تَحْفَظُونَ وَصَوْتَهُ تَسْمَعُونَ وَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ وَبِهِ تَلْتَصِقُونَ. وَذَلِكَ النَّبِيُّ أَوْ الْحَالِمُ ذَلِكَ الْحُلْمَ يُقْتَلُ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ مِنْ وَرَاءِ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ لِيُطَوِّحَكُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَمَرَكُمْ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا فِيهَا. فَتَنْزِعُونَ الشَّرَّ مِنْ بَيْنِكُمْ" (تث ١٣ : ١-٥).

وقد أدان إرميا كلمات حنيا بأنها تشجع الشعب للاتكال على الكذب "اسْمَعْ يَا حَنْنِيَا. إِنَّ الرَّبَّ لَمْ يُرْسِلْكَ وَأَنْتَ قَدْ جَعَلْتَ هَذَا الشَّعْبَ يَتَّكِلُ عَلَيَّ الْكَذِبِ" (٢٨ : ١٥) كما أنه (حننيا) قد "تَكَلَّمَ بِعِصْيَانٍ عَلَيَّ الرَّبِّ" (٢٨ : ١٦). وهكذا انتهت القصة أنه في غضون شهرين بعد تلك الحادثة مات حنيا... "الكذب" و "العصيان" ليسا من الكلمات التي نقولها باسم الرب، ولكننا نهتم جداً بأن نختبر الناس بما يقوله الله لهم. ولعل التعليم الواضح من هذا الجزء هو حاجتنا للاهتمام

الشديد بأن ما نقوله قد يصعب الأمور لقبول الناس للمسيح، وهذا بالتالي يضع علينا مسئولية كبرى.

### الحياة بموجب الكلمة:

هذا كثير بالنسبة لحننيا. وهناك نوع آخر من الدروس نجده في خطاب إرميا الذي كتبه إلى المسبيين في بابل (٢٩: ١-٢٣)، وبالرغم من بعد المسافة لكنه تفاعل بقوة مع خبر يفيد بأن نبيين هما أخاب وصدقيا قد زنيا بنساء أصحابهما "مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمَا عَمِلَا قَبِيحًا فِي إِسْرَائِيلَ وَزَنِيَا بِنِسَاءِ أَصْحَابِهِمَا" (٢٩: ٢٣). ولعل قليلين هم الذين ينكرون بأن بعض الناس قد يعيشون حياة رديئة ولكنهم يستمرون يتكلمون بالحق، إلا أن حكم إرميا على هذين النبيين كان يعتمد على اقتناعه بأن الحياة يجب أن تنسجم تماماً مع الرسالة، فالنبي هو تجسيد للكلمة الإلهية، وليس مثل رجل البريد الذي يفعل ما يريد في حياته الخاصة طالما أنه يوصل الرسائل بأمانة، وهكذا لا يستطيع النبي أن يهمل أسلوب حياته طالما أنه يعلم صفات الله الذي ينادي باسمه.

والله يستطيع بالطبع أن يستخدم أي فرد وإن كنا ننتظر حتى نكون كاملين قبل أن نفتح أفواهنا فإننا لن نقول كلمة واحدة ولكن ليس ذلك تصریحاً حتى نتكل على طبيعة الله الصالحة ومن ثم لا نتكلم، وعلى أي الأحوال فإن الذين نتكلم إليهم سوف يردّون بسرعة هكذا: "كيف أسمع ما تقول بينما أنت نفسك تصيح بصوت عالٍ؟ ومن ذا الذي يطلب من هيرودس الكبير نصيحة لرعاية الأطفال؟ هناك حقيقة طاغية تخرج من كل مادة تتعلق بالنبوة الكاذبة، وليس هناك بديل عن علاقة حية مع الله.

والنبوة تتضمن باستمرار حكماً على موقف ما، ولذلك فإن النبي يحتاج إلى معرفة قلب الحقيقة، فهل يأتي الوقت المناسب لكلمة يمكن أن تشفي أو تستعيد الموقف؟ والشخص الوحيد الذي يمكن أن يجاوب هو ذاك الذي له علاقة حقيقة مع الله. هل تواجه سامعيك وتدعوهم إلي التوبة؟ ومن يعلم إذا كانوا يحتاجون إليها؟ ربما تكون هناك خطية لا بد من مواجهتها أولاً. ثم من الجانب الآخر ربما يكون السامعون ليسوا عاصين جداً بل مجرد تعابى ومجهدين.

والشخص الذي يستغرق وقتاً حتى يصبح حساساً نحو الله هو نفسه الذي يكون حساساً نحو الناس، وربما يعرفهم أكثر مما يعرفون هم أنفسهم. وهذا يفسر الهجوم الثاني لإرميا على "الديانة الثانوية" ذلك لأن الأنبياء الكذبة. "بِرُؤْيَا كَاذِبَةٍ وَعِرَاقَةٍ وَبَاطِلٍ وَمَكْرٍ قُلُوبِهِمْ هُمْ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ" (١٤: ١٤) ويقومون بمهمات من أجل يهوه لكنه لم يرسلهم "لَمْ أَرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ بَلْ هُمْ جَرُّوا. لَمْ أَتَكَلَّمْ مَعَهُمْ بَلْ هُمْ تَنَبَّأُوا" (٢٣: ٢١)، وربما يدعون بأنهم تلقوا وحياً والحقيقة أنهم يظهرون موهبة الثرثرة، وأساءوا الكل أنهم: "سَرِقُونَ كَلِمَتِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ" (٢٣: ٣٠) أي يستخدمون عظات غيرهم من الأنبياء. لم يخطر ذلك على فكر إرميا أن يدعي أحدهم بأنه يتكلم باسم الله بينما هو لم يحصل على أية كلمة من الله.

ولسوء الحظ فإنه يمكن جداً أن توصل صوتاً ورسالة كتابية بينما هي ليست كلمة الله لتلك المناسبة، ولا يستطيع أحد أن يتكالم بينما تكون شركته مع الله قد انقطعت أو ماتت، لذلك كان إرميا يعود مرة تلو الأخرى إلى ما كان يدعو: "مَجْلِسِ الرَّبِّ" (٢٣: ١٨) - أو مشورة الرب - وكما يفعل الملك الأرضي فيشارك بأسراره مع مستشاريه الخصوصيين هكذا

يتصل الله مع الشخص الذي يقضي وقتاً في الوقت في "مقدس الله العلي" ويصغي إليه، وآلاف الكلمات لا تعتبر بديلاً عن عشر دقائق في محضر الله. ويقوم الصراع مرة أخرى مهما كانت التكلفة بالنسبة لإرميا وربما كان أكبر تناقض أنه لم يؤمن بأن "الكلام رخيص".

وكان الأنبياء الكذبة يشعرون بقرب الله إليهم وكأنه صديقهم أو رفيقهم (٢٣) بينما لم يشعر إرميا ببساطة هذا الأمر بل تأثرت حياته بشدة بسبب أنه كان نبياً ولم يتزوج وانقطعت علاقته العادية بقبيلته أو قريته كما كانوا يهزأون به علناً، وكان يتحطم بسبب الكلمة التي كرز بها. وكيف يكون الكلام رخيصاً في ضوء مثل هذه الكلمات: "انْسَحَقَ قَلْبِي فِي وَسْطِي. ارْتَحَتُ كُلُّ عِظَامِي. صِرْتُ كَأَنْسَانَ سَكْرَانَ وَمِثْلَ رَجُلٍ غَلَبَتْهُ الْخَمْرُ، مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ وَمِنْ أَجْلِ كَلَامِ قُدْسِهِ" (٢٣: ٩). وبعد هذا المقياس فإن العجب هو نحو الذي يتجاسر بعد ويتكلم باسم الله.

## الفصل الثامن

### سبعة عشر شاقلاً من الفضة

"الْكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا .... وَكَانَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ مَحْبُوسًا فِي دَارِ السِّجْنِ الَّذِي فِي بَيْتِ مَلِكِ يَهُودَا، لِأَنَّ صِدْقِيَا مَلِكَ يَهُودَا حَبَسَهُ قَائِلًا: لِمَاذَا تَنَبَّأْتَ قَائِلًا: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَآنَذَا أَدْفَعُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ لِيَدِ مَلِكِ بَابِلَ، فَيَأْخُذُهَا؟ وَصِدْقِيَا مَلِكُ يَهُودَا لَا يُفْلِتُ مِنْ يَدِ الْكَلْدَانِيِّينَ بَلْ إِنَّمَا يُدْفَعُ لِيَدِ مَلِكِ بَابِلَ، وَيُكَلِّمُهُ فَمَا لِفَمٍ وَعَيْنَاهُ تَرِيَانِ عَيْنَيْهِ، وَيَسِيرُ بِصِدْقِيَا إِلَى بَابِلَ فَيَكُونُ هُنَاكَ حَتَّى أَفْتَقِدَهُ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنَّ حَارَبْتُمُ الْكَلْدَانِيِّينَ لَا تَنْجَحُونَ. فَقَالَ إِرْمِيَا: كَلِمَةُ الرَّبِّ صَارَتْ إِلَيَّ قَائِلَةً: هُوَذَا

حَنَمَيْلُ بْنُ شَلُومَ عَمَّكَ يَأْتِي إِلَيْكَ قَائِلًا: اشْتَرِ لِنَفْسِكَ حَقْلِي الَّذِي فِي عَنَاثُوثَ، لَأَنَّ لَكَ حَقَّ الْفِكَاكِ لِلشِّرَاءِ. فَجَاءَ إِلَيَّ حَنَمَيْلُ بْنُ عَمِّي حَسَبَ كَلِمَةِ الرَّبِّ إِلَى دَارِ السِّجْنِ، وَقَالَ لِي: اشْتَرِ حَقْلِي الَّذِي فِي عَنَاثُوثَ الَّذِي فِي أَرْضِ بَنِيَامِينَ، لَأَنَّ لَكَ حَقَّ الْإِرْثِ، وَلَكَ الْفِكَاكُ. اشْتَرِهِ لِنَفْسِكَ. فَعَرَفْتُ أَنَّهَا كَلِمَةُ الرَّبِّ. <sup>٩</sup> فَاشْتَرَيْتُ مِنْ حَنَمَيْلِ بْنِ عَمِّي الْحَقْلَ الَّذِي فِي عَنَاثُوثَ، وَوَزَنْتُ لَهُ الْفِضَّةَ، سَبْعَةَ عَشَرَ شَاقِلًا مِنَ الْفِضَّةِ. وَكَتَبْتُهُ فِي صَكِّ وَخْتَمْتُ وَأَشْهَدْتُ شُهُودًا، وَوَزَنْتُ الْفِضَّةَ بِمَوَازِينَ. وَأَخَذْتُ صَكَّ الشِّرَاءِ الْمَخْتُومَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ وَالْفَرِيضَةِ وَالْمَفْتُوحِ. وَسَلَّمْتُ صَكَّ الشِّرَاءِ لِبَارُوحَ بْنِ نِيرِيَّا بْنِ مَحْسِيَا أَمَامَ حَنَمَيْلِ بْنِ عَمِّي، وَأَمَامَ الشُّهُودِ الَّذِينَ أَمْضُوا صَكَّ الشِّرَاءِ أَمَامَ كُلِّ الْيَهُودِ الْجَالِسِينَ فِي دَارِ السِّجْنِ. وَأَوْصَيْتُ بَارُوحَ أَمَامَهُمْ قَائِلًا: هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: خُذْ هَذَيْنِ الصَّكِّينِ، صَكَّ الشِّرَاءِ هَذَا الْمَخْتُومَ، وَالصَّكَّ الْمَفْتُوحَ هَذَا، وَاجْعَلْهُمَا فِي إِنَاءٍ مِنْ خَزَفٍ لِكَيْ يَبْقِيََا أَيَّامًا كَثِيرَةً. لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: سَيَشْتَرُونَ بَعْدَ بَيُوتًا وَحُقُولًا وَكُرُومًا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ" (٣٢: ١-١٥).

لقد مضت ست سنوات مرعبة بعد حادثة حنيا، وقد أثبت صدقيا أنه بسيط وضعيف فلم يقاوم التعصبات في قصره، وبدافع من أنبياء القصر وبالأخبار أنه سوف ينجح حسبما قال له مشيروه فقد اختلقت طموحاته البسيطة في دائرة من المكائد والمؤامرات مع جيرانه القريبين منه آدوم وموآب وصور وصيدون وصاروا جميعهم مع يهوذا مثل الفئران التي تلعب طالما أن القط الكبير نائم على بُعد آلاف الأميال. وعندما انتهز صدقيا فرصته ومد يده بالعصيان كان بابل سريعا



ومتوقعاً، ففي خريف عام ٥٨٩ ق.م بدأت بابل في تحطيم المدن الصغرى في فلسطين، وفي يناير ٥٨٨ ق.م صارت أورشليم تحت الحصار.

وليس من السهل علينا أن نتخيل كيف استمرت الحياة في تلك الظروف، وبرغم اضطراب الزمن إلا أن الحياة استمرت تماماً كما تمر العائلات في مراحل الحياة بينما تنتظر تقريراً من الأخصائي أو خطاباً من المدعي العام أو استدعاء من الشرطة وقد قال صديقي إن اتصالاً في الثالثة صباحاً يعني وجود مشكلة، لقد استمرت الحياة ولكن كما في كابوس أي بعيداً عن الذهن وبعيداً عن التصديق (كما يظن البعض في الأفعى المؤلهة التي تدخل أجسام الموتى فتحييها) لاسيما عندما نستعيد أحوال كارثة كنا نتوقعها أو مخاوف لا نجرؤ على التأمل حولها.

ولا بد أن الحال كانت هكذا بينما كان الناس في أورشليم يتطلعون إلى الأسوار العالية وحولها خيام العدو، لا سيما وأن كل قوة الحرب البابلية قد تحولت نحو مدينة داود. ولكن هناك بعض الأمور التي لا تتغير وكذلك بعض الأشخاص، ومنهم كان إرميا الذي أصر على قدوم الدينونة بسبب خطية الشعب ولم يجفل عن ذلك برغم عدم مسرته به. وهكذا بمنطق معقول ولكن تعوزه اللباقة أن التسليم لبابل مبكراً كان خيراً لهم عما إذا صار متأخراً لا سيما وأن الهزيمة لا مفر منها. والواقع أن الحرب ضد الله، والشخص الذي أخذ كلمة الله بجدية كان يفعل حسناً لو أنه ترك العدو بدون حرب.

أما قادة الأمة فلكي يرفعوا من روح الشعب فقد اعتبروا هذه التعليقات خيانة كبرى، ومن ثم تصرفوا لصالح الأمة واحتقروا رسالة إرميا وأنزلوه في زنزانه في بيت القصر، وكان غائصاً

في الوحل لكنهم تركوه هناك مع ملاحظاته السياسية التي لن يتأثر بها أحد آخر، وربما كانت تلك هي نهاية إرميا لو لم يتغير قلب صدقيان لكنه ظل تحت الحراسة ولئن كان يسمح بالزائر الغريب أن يراه من وقت إلى آخر.

### الحقل الذي في عناثوث:

ظهر زائر جداً في ذلك اليوم ومعه طلب غريب، لقد وقف ابن عم إرميا على المدخل وقد شمر عن ذراعيه وظهر عليه الارتباك إذ كانت القصة مؤسفة هكذا: "أنا سيء الحظ وأنت تعلم كيف تنتهي الأمور.. لقد استندت حتى تكومت ديوني وصرت مطالباً بالسداد ولست قادراً على ذلك..". وهكذا في وقت الحصاد هناك تهديد بانهيار النظم الاقتصادية ولا تستطيع أن تعتمد على استمرار العمل. لكن حنمئيل وجد مخرجاً، فقد كان يمتلك حقلاً في عناثوث كان لأجيال سابقة في العائلة، ولم يكن ممكناً بيعه في السوق الحرة كما لا تدعو الحاجة إلى حقل في مكان تتطلب الحركة فيه التوجيه أولاً إلى فوج من الجنود البابليين، ويبدو أن دائنية لم يقبلوا ذلك الحقل. وعلى أي الأحوال كان لابد أن يتوجه المالك إلى أحد أفراد العائلة، فهل يمكن لإرميا أن يتصرف بعد أن يعلم بالمكلة ومن ثم يشتري؟! كان ذلك مستحيلاً من الناحية التجارية لأن حقل حننيا كان من البنود غير القابلة للبيع ولو لمسّه شخص اعتبر فاقد العقل.

بيد أن المدهش أن إرميا فعل ذلك واشتراه باعتبارات كاملة للممارسة التجارية ووزن سبعة عشر شاقلاً من الفضة وكتب نسختين من الصكوك، واحدة تأكد من ختمها وحفظها والثانية مفتوحة "وَأَخَذْتُ صَكَّ الشِّرَاءِ الْمَخْتُومَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ وَالْفَرِيضَةِ وَالْمَفْتُوحَ" (٣٢: ١١) للقراءة حتى يعلم أي فرد بما

كان مسجلاً في النسخة المحفوظة...! ثم سلم الصكين إلى باروخ الذي وضعهما في إناء من خزف وسوف يتم فتحه في المستقبل دون تحديد للتاريخ، وهكذا تمت الإجراءات بدقة من حيث الإمضاء والختم والتسليم دون أية مساومة. ثم انتقل الخبر بسرعة في كل أورشليم، لماذا؟ لماذا هذا الانتحار التجاري؟ لكن إرميا لم يترك المدينة تنتظر كثيراً للتفسير، ولكنه أعلن بنغمة قاطعة وواضحة بأن "بيوتاً وحقولاً وكروماً" سوف تُشترى ثانية في تلك الأرض وكان هذا الشراء عملاً رمزياً وتعبيراً عن الرجاء بأن الكارثة لن تكون هي كلمة الله الأخيرة وأن الناس في ذات البقعة سوف يعودون إلى قولهم: "هذا هو العمل المستمر" ولعلي أرى قوياً في عمل إرميا هذا إذ يتطلب نوعاً خاصاً من الشخص الذي يشتري حقلاً بينما العالم ينهار من حوله، وليس فقط نوعاً خاصاً من الشخصيات بل أيضاً نوعاً خاصاً من الرؤية.

وهناك قصة عن اثنين من معلمي اليهود كانا يتباحثان عن نقطة غامضة في قواعد اللغة العبرية بينما كانا في طريقهما إلى غرفة الغاز بالمعسكرات النازية للإعدام. وهذا هو الرجاء الذي تمثل في الإعلان الجهاري العظيم الذي أصدره إرميا في ذلك اليوم مؤيداً بإمضائه وشرائه ودفعه للمال.

### مواجهة الحقائق:

من المهم أن نمسك بالطبيعة الخاصة للرجاء في الكتاب المقدس، ذلك لأنه ليس مجرد تفاءل. أولاً يتضح أن الرجاء الكتابي يواجه الحقائق ولا يغلق عينيه عن تقديم الصعاب. وكان في أورشليم رجل بارز واقعي أثناء حصارها هو إرميا، وقد استطاع أن يمتحن موقفه الخاص بأمانة ويتكلم بلا تحيز عن مرض الشعب، وبينما توقع البعض أن المشاكل سوف

تنقضي في غضون عامين وأن المرّحّلين سوف يعودون ثانية بمجرد ذهابهم إلا أن إرميا أصّر على أن السبي سوف يطول. وبينما ترجى البعض أن مصر سوف تساعد يهوذا رأى إرميا بوضوح أن قوة بابل لا تقهر. وبينما اتكل الرؤساء على يهوياقيم الملك الصغير في السبي وقد تنبأ أنه سوف يستعيد المملكة حالاً، لم ينكر إرميا ذلك فحسب بل رأى أيضاً احتمالاً أفسى أن أورشليم سوف تسقط وصدقياً يتم أسرهم. وبينما تشدق الأنبياء الكذبة بالرسالة المعزية "سلام، سلام" كرز إرميا بالعرب من كل جانب حتى صار اسمه مرعباً. إن الرجاء بحسب الكتاب المقدّس لا يغلق عينيه عن الأشياء، بل هو واقعي جداً وأمين للغاية. والواقع بحسب المفهوم الكتابي أن بداية الرجاء هي مواجهة الحقائق. وتلك الكارثة لم تكن مجرد صعوبة صغيرة محلية، وذلك الفشل لم يكن محدوداً، بل كانت الأمور في منتهى السوء. وهكذا كانت الحال مع تلاميذي عمواس وقد عبّرا عن خداعهما في توقعاتهما "وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ. وَلَكِنْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ الْيَوْمَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مُنْذُ حَدَثَ ذَلِكَ" (لو ٢٤: ٢١)، وبكت مريم عند القبر لأن يسوع قد مات حقاً وجسده لم يُعثر عليه بعد "فَقَالَا لَهَا: «يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ»" (يو ٢٠: ١٣). لقد اجتاز إرميا نفسه في النار كما تعلّم أن يعيش في ظلام اليأس ومع الحقيقة غير المريحة وفي عدم أمان تام. أمّا تراث الألم فهو المقدرّة على البقاء أميناً حول حقيقة كل الأمور.

**قبول الرؤية:**

يختلف الرجاء الكتابي من زاوية أخرى فربما نستخدم كلمة "أرجو" للتعبير البسيط لما نحب حدوثه كأن نقول مثلاً: أرجو أن أنجح في الامتحان.. أرجو أن يحضر فلان في الميعاد.. لكن رجاء إرميا كان بمثابة قبول هبة وليس مجرد الإتيان بفكرة براءة، وهكذا مكتوب: "كَلِمَةُ الرَّبِّ صَارَتْ إِلَيَّ قَائِلَةً: هُوَذَا حَنَمَيْلُ بْنُ شَلُّومَ عَمِّكَ يَأْتِي إِلَيْكَ قَائِلًا: اشْتَرِ لِنَفْسِكَ حَقْلِي الَّذِي فِي عَنَاثُوثَ، لِأَنَّ لَكَ حَقَّ الْفِكَاكِ لِلشِّرَاءِ. جَاءَ إِلَيَّ حَنَمَيْلُ بْنُ عَمِّي حَسَبَ كَلِمَةِ الرَّبِّ إِلَيَّ دَارِ السِّجْنِ، وَقَالَ لِي: اشْتَرِ حَقْلِي الَّذِي فِي عَنَاثُوثَ الَّذِي فِي أَرْضِ بَنِيَامِينَ، لِأَنَّ لَكَ حَقَّ الْإِرْثِ، وَلَكَ الْفِكَاكُ. اشْتَرِهِ لِنَفْسِكَ. فَعَرَفْتُ أَنَّهَا كَلِمَةُ الرَّبِّ" (٣٢: ٦، ٨).

وليس واضحاً كيفية قبول إرميا لذلك لكنه واضح أن هذا الرجاء لم يكن مجرد تفكير محبب بل كان "دعوة" له بعدما حدد الله الرجاء وزرع الفكرة وأعطى الرؤية. ولذلك كان اقتناع إرميا بالحقل وبما سوف يفعله الله ليس خيلاً أو نزوة، فلم يقل فجأة هكذا: "الآن يكون جميلاً لو أن...". والواقع كما نحكم على صلواته بعد ذلك في نفس الأصحاب أنه وجد صعوبة بالغة لتقبل الفكرة: "وَقَدْ قُلْتَ أَنْتَ لِي أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ: اشْتَرِ لِنَفْسِكَ الْحَقْلَ بِفِضَّةٍ وَأَشْهَدْ شُهُودًا، وَقَدْ دُفِعَتْ الْمَدِينَةُ لِيَدِ الْكَلْدَانِيِّينَ" (٣٢: ٢٥). وهنا نقطة هامة وعملية، فنحن قادرون على كل أنواع الرجاء التي تعطي خيلاً وهواء منعشاً، لكننا لا نعتبر أي مخطط طائش أنه أمل أو رجاء. والرجاء الحقيقي هو نتيجة الصلاة والتأمل والحديث الثنائي مع الله، كما أنه نتيجة الإصغاء بعناية والتقبل لكلمة الله والتغذي بها.

وأعتقد أنه كانت هناك عطية أخرى لتلك الساعات المرعبة في الألم، فقد تعلّم إرميا أن يصغي إلى أخف الهمسات لصوت الرب، وقد اقتنع الآن، بأن هذا الرجاء للمستقبل والذي تجسد في ذلك العمل المعين هو عطية من الله، وليس هؤلاء عن المستقبل أو كعكة في السماء، أو رغبة ملحة عند أحد السماسة.

### الاتكال على الله:

ربما يقول أحدهم: "بالطبع كل هذه الإيماءات مؤثرة لكنها ليست ضرورية جداً". وكل فرد له علم بالتاريخ كان سوف يرى أن قوة عظيمة مثل بابل كان لابد أنها سوف تتفوق إن أجلاً أو عاجلاً وتأتي بالتحطيم، والرجاء هنا لا يعدو سوى طريقة متديّنة للحدق السياسي". وربما كانت إجابة إرميا بهذا القول، حتى لو كانت بابل سوف تنهار على المدى الطويل، وعندئذ لن يستطيع أحد أن يتوقع التحرر من السبي أو السماح بالاستقرار في أرض الوطن. والواقع أن إرميا لم يفكر هكذا إطلاقاً، إذ كان رجاءه مؤسساً على شخصية (صفات) الله وليس علي دراسته للأخبار اليومية.

وقد اعتمد في النهاية على الله الذي يعرف أنه أمين ومحب ولذلك فإن العقاب والمصائب والترحيل وعدم التوافق والخسارة لا يمكن أن تكون هي كلماته الأخيرة. ولعلنا نتصوّر منطق تفكيره كما يلي: "هذه هي أرض الموعد، فإن كنت لا أدعها تخرج عن ممتلكات العائلة فإذا أنا متأكد من الله يريد ذات الشيء. وإن كنت مستعداً لشراء حقل خسران فكم بالحرى الرب الفادي سوف يشتري ثانية! وإن كنت أضع نفسي من أجل قريب لي فهل الله أبونا سوف يهجر عائلته أو الله "الزوج" سوف يطلق زوجته؟".

إن الرجاء يعتمد على الله ذاته، وهو أمين ومحِب، له أرض معدّة لنا لكي ندخلها وأشياء صالحة لكي نتمتع بها، وهو "الَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيَدْعُو الْأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ" (رو ٤: ١٧). وهذا هو أساس كل ما نتوقعه من الغد.

### التمسك بالحاضر:

هذه الجوانب الثلاثة للرجاء الكتابي - أي الذي بحسب الكتاب المقدّس - وهي مواجهة الحقائق وتقبل رؤية من الله والاعتماد على صفات الله، لها خيط هام في الحاضر، ذلك لأنه في الوقت الذي أرى فيه نفسي وأرى مكاني أستطيع بنعمة الله أن أبدأ في التغيير، ومن ثم أمسك بزمام الحياة وأصبح شخصاً "يعمل" وليس مجرد كرة بلياردو تضرب الكرات الأخرى.

بمعنى أنني أمسك بالمستقبل وأتثبت الآن بما يذخره لي الله في المسيح نحو المستقبل، وهو ما دعاه أحدهم "بهواية المستحيل" وهو ما عبر عنه القديس بولس بقوله: "وَلَكِنِّي أَسْعَى لَعَلِّي أُدْرِكُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَدْرَكَنِي أَيْضًا الْمَسِيحُ يَسُوعُ" (في ٣: ١٢). ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك، وبمجرد معرفتي لما سوف تؤول إليه الأمور أصبح قلقاً جداً لأي شيء لا يتوافق مع هذه الرؤية، ولن أقبل شيئاً كما هو وسوف أرفض الإذعان لما يهدد أو يشوّه أو يسحق أو يحبس نفسي أو الآخرين، كما لن أتفق مع الطرق الحالية ذلك لأن الله قد أظهر لي أنها لا يجب أن تكون كذلك. ولعلنا بطريقة ما نرى أن إرميا قد فعل هذا، فلم يكن شراؤه للحقل مجرد عمل رمزي أو عوناً منظوراً، بل احتجاجاً واقعياً ضد اضطراب الحاضر وقد دفع مالاً حقيقياً! وربما تكتشف فجأة السبب

الذي جعل اللاهوتيين في العصور الوسطى اعتبروا "الفشل" خطية، وأرجو أن لا تسيء فهمي، فلم يكونوا ينتقدون أولئك الذين كانوا يعانون من الاكتئاب، بل تكلموا عن الموقف الذي يفشل من جهة الله ويقول: "إنه لا يستطيع أن يفعل لي شيئاً وقد أضحي موقفى بدون أمل"، وهذا هو الذي يحمل رائحة الموت نحو هذا الموقف بالرغم من أننا شاهدنا إرميا في ذات الموقف.

لكن الرجاء - الأمل - يتكون من مادة أقصى، فهو يقول "لا" للموت ولكل ميت مهما كان صغيراً، ويقول "لا" باسم الله، لكنه يقول "نعم" لكل ما يريد الله لنا ولكل ما يريد الله أن يمتعنا به، ولذلك نجد أن من ألقاب الرب يسوع أنه "نعم" الإلهية "لِكَيْ لَا نَكُونَ مُتَّكِلِينَ عَلَى أَنْفُسِنَا بَلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يُقِيمُ الْأَمْوَاتَ" (٢كو ١: ١٩) وفيه كل الكنوز وفيه تستطيع أن تضع يدك على ميراثك. لقد سقطت أورشليم في صيف عام ٥٨٧ ق. م بعدما نفذ الطعام، وذهب الجميع إلى الظلام ومنهم صدقيا وأولاده والأمراء والكهنة والأنبياء والشعب وحنمئيل ودائنوه وإرميا وباروخ، ولكن واحداً فقط - على الأقل - كان يعلم أن تلك الكارثة لم تكن هي كلمة الله الأخيرة نحو شعبه، ذلك لأنه امتلك هذا الحقل ومعه الصك الذي يثبت ذلك.

## الفصل التاسع

### نعمة في البرية

"اسْمَعُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ أَيُّهَا الْأُمَّمُ، وَأَخْبِرُوا فِي الْجَزَائِرِ  
الْبَعِيدَةِ، وَقُولُوا: مُبَدِّدُ إِسْرَائِيلَ يَجْمَعُهُ وَيَحْرُسُهُ كِرَاعِ  
قَطِيعِهِ. لِأَنَّ الرَّبَّ فَدَى يَعْقُوبَ وَفَكَهُ مِنْ يَدِ الَّذِي هُوَ



أَقْوَى مِنْهُ. فَيَأْتُونَ وَيُرِيْمُونَ فِي مَرْتَفَعِ صِهْيُونَ،  
 وَيَجْرُونَ إِلَى جُودِ الرَّبِّ عَلَى الْجِنِطَةِ وَعَلَى الْخَمْرِ  
 وَعَلَى الزَّيْتِ وَعَلَى أَبْنَاءِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ. وَتَكُونُ نَفْسُهُمْ  
 كَجَنَّةِ رِيَا، وَلَا يَعُودُونَ يَذُوبُونَ بَعْدُ. حِينَئِذٍ تَفْرَحُ الْعَدْرَاءُ  
 بِالرَّفْصِ، وَالشَّبَابُ وَالشَّيُوخُ مَعًا. وَأَحْوَلُ نَوْحَهُمْ إِلَى  
 طَرَبٍ، وَأَعَزِيهِمْ وَأَفْرِحُهُمْ مِنْ حُزْنِهِمْ. وَأُرْوِي نَفْسَ  
 الْكَهَنَةِ مِنَ الدَّسَمِ، وَيَشْبَعُ شَعْبِي مِنْ جُودِي، يَقُولُ  
 الرَّبُّ " (٣١: ١٠-١٤).

"هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ  
 يَهُودَا عَهْدًا جَدِيدًا. لَيْسَ كَالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ  
 أَمْسَكْتُهُمْ بِيَدِهِمْ لِأَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، حِينَ نَقَضُوا  
 عَهْدِي فَرَفَضْتُهُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. بَلْ هَذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ  
 مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّامِ، يَقُولُ الرَّبُّ: أَجْعَلُ شَرِيعَتِي  
 فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهًا وَهُمْ  
 يَكُونُونَ لِي شَعْبًا. وَلَا يُعَلِّمُونَ بَعْدُ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ، وَكُلُّ  
 وَاحِدٍ أَخَاهُ، قَائِلِينَ: اعْرِفُوا الرَّبَّ، لِأَنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ سَيَعْرِفُونَنِي مِنْ  
 صَغِيرِهِمْ إِلَى كِبِيرِهِمْ، يَقُولُ الرَّبُّ، لِأَنِّي أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ،  
 وَلَا أذْكَرُ خَطِيئَتَهُمْ بَعْدُ" (٣١: ٣١-٣٤). كانت نهاية العالم قد  
 حلت على يهودا، وصار العويل بأن الأمم قد دخلوا إلى  
 ميراثهم من خلال دخان خراب أورشليم، وأصبحت أرض  
 الموعد مهجورة وتحولت المدينة إلى حطام حجرية، وتم  
 ترحيل الجنس المختار، وزال البصر عن ممسوح الرب، وكان  
 أسوأ الكل أن بيت الرب فقد مجده واشتعلت فيه النار، تماماً  
 كما تنبأ إرميا . ولكن الآن كان على الشعب أن يتعلموا  
 التسبيح بأغنية الرب في أرض غريبة وأن يبكوا على مياه  
 بابل. أمّا رد فعل إرميا فلم يكن كما توقعنا، وبينما ترنحت

يهودا تحت الوطأة، سجّل هو بعضاً من أجمل أشعاره القلبية، والنبى الذي اكتسب اسماً قاتماً قد تكلم آنذاك بكلمات العودة والرجاء. وفي يوم المصيبة ذاته إرميا بأن الوقت قد حضر لكي يترك عملاً ويبدأ آخر.

### سفر التعزية:

هذا الجزء الشعري يتكون من أصحابي ٣٠، ٣١ وبهما بعض الأجزاء النثرية، ويدعونه عادة بأنه "سفر التعزية الصغير" لأن آياته الافتتاحية تقول إن الله أمر إرميا بأن يكتب ما يقوله له في "سِفْرٍ" (٣٠: ٢)، لكن الموضوع كان مدهشاً هكذا: "هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأَرُدُّ سَبْيَ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ وَيَهُودَا، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأَرْجِعُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُعْطَيْتُ آبَاءَهُمْ إِيَّاهَا فَيَمْتَلِكُونَهَا" (٣٠: ٣).

وظهرت هذه المقولة الافتتاحية في سلسلة من الصور الحية، وبعدها قذف إرميا الشعب بكرازته عن العقاب فإنه الآن يظهر رد فعل كل صورة مؤلمة على أنه الرجاء المنتظر. فإسرائيل قد حوّلت القفا نحو الله وهكذا الله نحوها، ولكنه الآن سوف يعيد هذا الالتفاف ويعيدهم ثانية إلى وطنهم روحياً ومادياً. وقد عرفت إسرائيل خوفاً شديداً ولكن الله الآن سوف يعطيها سلاماً شاملاً وأماناً. لقد قُطعت وجُرحت وضُربت لكن الله سوف يشفيها. وقد تبعثر الشعب المختار ولكن الله سوف يعيده إلى أرض الموعد حتى من أقاصى الأرض. كانوا عبيداً لكن الله سوف يكسر قيودهم.

وكل أمة تجاسرت أن تلمسها سوف تقابل غضب عدل الله. وتشابه ذلك كله مع الخروج من مصر مرة أخرى، وسوف يقود الرب شعبه خلال البرية بمجاري المياه على الطرق المستقيمة: "إِنْصِبِي لِنَفْسِكَ صُؤَى (علامات علي الطريق)

اجْعَلِي لِنَفْسِكَ أَنْصَابًا (لافتات إرشادية) اجْعَلِي قَلْبَكَ نَحْوَ السِّكَّةِ، الطَّرِيقِ الَّتِي ذَهَبْتَ فِيهَا. ارْجِعِي يَا عَذْرَاءَ إِسْرَائِيلَ. ارْجِعِي إِلَيَّ مُدْنِكَ هَذِهِ (من نفس الطريق)" (٣١: ٢١). كان النبي يرى بعقله رجوع المسبيين ومن بينهم الضعيف والهزيل، الأعمى والأعرج، الماخض والتي على وشك الولادة، بيد أن الرب سوف يأخذهم وهم باكون وخائرون ثم يسكب عليهم بركته الملكية من الحنطة والخمر والزيت والغنم والبقر "فَيَأْتُونَ وَيُرْتِمُونَ فِي مُرْتَفَعِ صِهْيُونَ وَيَجْرُونَ إِلَيَّ جُودِ الرَّبِّ عَلَى الْحِنْطَةِ وَعَلَى الْخَمْرِ وَعَلَى الزَّيْتِ وَعَلَى أَبْنَاءِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ. وَتَكُونُ نَفْسُهُمْ كَجَنَّةِ رِيَّا وَلَا يَعُودُونَ يَذُوبُونَ بَعْدُ" (٣١: ١٢) فيصبحون مثل جنة الرب، وهي صورة الفردوس المسترد. بعدما دُمرت مدن فلسطين سوف يعاد بناؤها وسوف يحتفل ثانية الكهنة والشعب وسوف يترنم الجمع بترنيمات الحمد في صهيون، ويكونون شعباً واحداً وينتهي زمان النوح وسوف تردد الأرض صدى أصوات الطبول بالترنيم والرقص. ثم يقدم إرميا صورة جذابة ويتكلم عن إسرائيل أنها "عَذْرَاءٌ" (٣١: ١٢).

بعدها كانت الزانية لعدة قرون، والزوجة الخائنة التي ذهبت وراء آلهة أخرى. لقد خرجت هذه التعبيرات بسرعة من فم النبي، وإذ بهذه العجوز الشمطاء الخائنة الفاسدة المريضة تصبح شابة صغيرة مرة أخرى، ولن يطرح الرب إسرائيل ثانية ولن يعود أحد ليقول: "مَنْفِيَّةٌ صِهْيُونَ الَّتِي لَا سَائِلَ (لا صديق) عَنْهَا" (٣٠: ١٧). وهكذا تتراكم الصور فوق بعضها وكذلك المناظر والوعود، ولئن كانت رؤية جميلة لكنها تثير أسئلة صعبة بالنسبة لنا كما حدث بلا شك بالنسبة للمسبيين.

## مثل الحالمين:

أعتقد أن أول ما نسأل عنه هو عما إذا كان قد تحقق ذلك من عدمه. إنه حلم لكن هل لمس الواقع؟ وهذا السؤال يقودنا إلى قلب فهمنا للمواعيد النبوية. ومن واقع التاريخ فإن جزءاً كبيراً من الرؤية قد تحقق، فقد عاد الشعب فعلاً من السبي وعادت حياة الأمة. ولكننا لا بد وأن نقر بأن هناك تعارضاً يدعو للفشل بين رؤية إرميا وبين الوقائع الدنيوية للحياة بعد السبي. ولكن عندما نقر بهذا فنحن أكثر قدرة على فهم طبيعة الوعد الكتابي. ونحن نعلم أنه أحياناً تتحقق وعود الرب بطريقة حرفية، لكنها تتم دائماً في معناها الأعمق. ولكي أكون أميناً فإن وعد إرميا بالدفوف لا يعنيني كثيراً، لكن هذه الصورة تخبرني كثيراً عن محبة الله وعن مسرته بشعبه. والمعنى الحقيقي لمواعيد الله هو في الطريقة التي توجّهنا بها نحو الله، وهي (المواعيد) التي تبين لنا صورة الله وكأنها تقول إن الله نفسه يقول: "ليتكم تفكرون في أفضل ما يمكن، وأنتم الآن تتحركون في الاتجاه السليم، وربما تختلف الحقيقة ولكن إن صح ذلك فإنه بسبب ما لديّ في فكري نحوكم وهو أفضل لكم".

وهذا هو السبب الذي يجعل المؤمنين يقولون إن كل مواعيد العهد القديم قد تحققت في المسيح، وهو أفضل ما يمكن أن نتخيله، وليس لدى الله في فكره ما هو أفضل منه. وربما يقول البعض إن هذا يفقدنا المقصود، وفكرة الوعد كلها بالنسبة لهم تثير لديهم شعوراً عميقاً من المرارة، وأنا أفهم هذا، وهناك أوقات لا نريد أن نسمع فيها أخباراً سارة ولا نريد أن نضيء الأفق. ولعلّ "إرك بيرن" حين كتب في كتابه "المباريات التي يلعبها الناس" قد وصف وشرح نوعاً من

السلوك دعاه: "نعم، ولكن..." فعندما يقول صديق شيئاً لكي تبدو وكأن الأمور ليست سيئة جداً وأن هناك شيئاً إيجابياً يمكن القيام به تجاه موقف ما، فإننا نجيب هكذا: "نعم ولكن..." ثم نعقب ذلك باعتراض ما، وعندما نتكلم مع أحدهم بهذا الأسلوب فإنه قد يكون محبطاً جداً لأننا نشعر بأن هناك لعباً ما في الأعماق، وبالرغم من علمنا بما نلعبه فإنه يبدو في غاية الجدية ويبقى الخطر هو أماننا في عالم لا يكثرث، وإن كانت الأمور على أسوأ ما يمكن فإننا لا نتوقع أذية أكثر، وعندما نقتنع بأن لا أحد يحبنا أو حتى يرغبنا فإننا لا نريد الأصدقاء أن يتجولوا ويثبتوا أننا مخطئون.

وهناك ما يمكن أن نقوله من جهة الذهاب إلى الكنيسة والجلوس في انتظار الآخرين لكي يأتوا ويتحدثوا إلينا بينما تبدو صعوبة الاقتراب إلينا كل الوقت ثم ننصرف بسرعة في نهاية الخدمة لكي نقول: "هه! هل تسمي هذا شركة مسيحية! لم يهتم أحد بالحديث معي". من السهل أن تصبح متنافراً عندما يتصرف الناس هكذا لكن يبقى هناك تحت المشهد شخص يعاني من جرح غائر، وفي مثل هذه الأوقات تبدو مواعيد الله بلا طعم أو بالية أو محزنة.

وقد تختلف الصعوبة بالنسبة للبعض الآخر، وهم يودون أن تتحقق هذه المواعيد والرؤى، لكن تحقيقها يبدو عظيماً جداً لهم، وربما نشكي هذا بمشكلة "الكآبة". قالت لي إحدى السيدات: "إن كل ما أحصل عليه من أصدقائي المؤمنين هو آيات "للحفظ" وربما لهم كلمة من الله لكن الآيات ليست صالحة لي. لكنني أريد الحقيقة التي تدور حولها هذه الآيات". إن هذه السيدة لم تقل هذا بنبرة مرة خاصة لكنها كانت حزينة أكثر منها غاضبة، لأن المواعيد بالنسبة لها كانت

مجرد كلمات لم تتصل بأي واقع. وربما تستطيع إقامة ممالك وقصور بمجرد كلمات ولكن مع كل جمالها تبقى قلاعاً في الهواء، وقد يكون ذلك هو رد فعل الشخص الذي له دراية سابقة بكل شيء.

قال لي شاب: "لقد تجددت ١٣ مرة" وتنهد آخر وقال لي: "كانت لي هذه الاختبارات من التكلم باللسنة ووضع الأيدي والشفاء والخدمة، ولقد تعبت من ذلك كله، وأخشى أن الاختبار "الجديد" يكون قناعاً للقديم". ولا يعني ذلك أن التحرر ليس مطلوباً بل هو مطلوب بشدة. ولكن من احترق مرة فإنه يخشي التكرار، بل ربما يشعر بعدم قدرته على الاستجابة تماماً. وهذا ما يُقصد من معنى "شبه اليأس" أو الضياع أو الحزن أو الهجر.

### هكذا أجعل كل شيء جديداً:

ماذا قال إرميا تجاه كل هذا؟ إنني لم ألمس بعد أهم نقطة في هذه الرسالة. كان إرميا يعلم جيداً قساوة القلب البشري، كما كان يعلمه بولس بعده، أنه في الإمكان أن تريد شيئاً ثم تجد نفسك تفعل الضد، وكان يعلم تماماً أنه من السهل أن تقول بأنك تحاول أن تخدم الله ومع ذلك فأنت لا تريد حتى أن تتبعه. لقد كان يعلم أننا نعيش على مستويات مختلفة، وأن الفهم يستطيع أن يقول شيئاً بينما يفكر العقل في شيء آخر ويتمنى القلب شيئاً ثالثاً. ولأنه كان يعلم كل هذا فقد رأى إرميا أن حل الله يقع في خليقة جديدة عندما يفعل الله شيئاً جديداً.

لابد أن يعمل الله عهداً جديداً أمّا العهد السابق فقد انكسر عدة مرات في كل جيل، وكان على الله أن يكتب هذا العهد لا على ألواح حجرية بل على قلوب شعبه حتى تصبح

العلاقة جزءاً من مجرى الدم وتأخذ عمقاً في النخاع. فمن جانب واحد يعني ذلك أن إسرائيل لم تعد بحاجة إلى معلمين، وكل واحد سوف يعرف الرب شخصياً ومباشرة وعن قريب. وربما يسهل علينا أن ننسى أنه على أساس هذا المنظور فإننا نقسم الكتاب المقدس إلى عهدين قديم وجديد، إلا أن إرميا قد لمح جزئياً ما سوف يأتي به الرب يسوع بالكامل.

والحقيقة أنه عمل النعمة فقط من الله هو الذي يعطينا القوة للسير في طريقه وبالنعمة فقط يصل عملها إلى مرارة نفوسنا، والنعمة فقط هي التي تنتج فينا رغبة التحوّل عن الخطية، وهي وحدها التي تخلق الرجاء، وهي فقط التي تُحوّل مياهنا إلى خمره. أحياناً يعتقد بعض الناس أنهم مجرد تنظيم ذواتهم سوف يتوبون أو يحصلون على إيمان أكثر أو يصلون أفضل أو يخدمون الله بفاعلية أوقع. ولكن بدون لمسة النعمة فإننا لا نستطيع حتى مجرد البداية، ولئن بدأنا فعلاً فإنه يصبح في الحال عملاً شاقاً جداً. لقد قال الرب يسوع: "لَيْسَ أَنْتُمْ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ" (يو ١٥: ١٦).

إنني أقر صراحة بأن هذا سر كامل، ولكنني أقبل حقيقته لأنني قد شاهدت حدوثه، وهو دائماً حالة من هبوب ريح الله حيثما يريد هو وليس حيثما أو أينما نقدم نحن الكلمة. وإنني أتذكر "كارن" تلك السيدة التي حزنت على الولد الذي لم يوجد بعد وكانت تخشى انتقام الله التالي منها ولكنها فجأة وبدون سبب واضح تمتعت باختبار محبة الله مما جعلها تشعر بالعناية والرفعة حتى في الحضيض. ثم "مايكل" في صراعه مع الخطية وفي عجزه ولكن بكل أمانة لم يرغب في التغيير ووقع فريسة للذنب وفجأة سمع حكم الرب يسوع عليه، لكن

الحكم كان نقياً وعادلاً جداً وموضوعياً ولكن بدون أية وصمة فيه - وهذه هي المعجزة - وقال: "لقد رأيت نفسي كما رأني هو" وهكذا تخلص من عقدة الذنب.

أمّا مشكلة "جون" فقد كانت مختلفة، وقد ظل لعدّة أشهر يصارع لكي يزيل النفور تجاه زميل مسيحي ولكنه فشل، وفي ذات صباح رأى الرب يسوع في الموقف وإذا بأصل المرارة يزول عنه. إننا لا نقدر أن نصنع مثل هذه اللحظات، كما لا نستطيع أن نحتفظ بمدد من النعمة في الثلاجة لحالات الطوارئ. ولكنه مثل المن في البرية كان مؤونة يومية ثم يزول بعد ذلك. ولا نستطيع أن نتوقع الوقت الذي سوف يعطينا الله فيه مثل هذه الاختبارات. ولاشك نعلم أننا لا نستحقها وهذا جزء من تعريف النعمة. وفجأة تجد أن الكلمة القديمة "مبارك" قد صارت مناسبة تماماً، ومثل هذه اللحظات تشبه البركة الرسولية في قوة تغييرها، وعندما تأتي فإنها تأتي في القرمز والذهب.

### الاستعداد للمعجزات:

هذه الأمثلة قد تعطي انطباعاً بأن النعمة هي مسألة اختبارات حادة. وواضح أن الكتاب المقدّس يتوقع أن "الناموس المكتوب في القلب" وأمّا ما يقابل ذلك في العهد الجديد: "السلوك بالروح" أنه إشارة إلى حياة المؤمن العادية وأنها مثل الماكينة التي تسلمك شيئاً بعد وضع العملة بها ولا ساعياً يلتزم بالتعليمات المتروكة على الباب، وفي النهاية فإن النعمة هي عطية نقية. حسناً، إذن لا يستطيع أحد أن يُنظم أو يضع معجزة النعمة في نظام، لكن هل يعني ذلك أننا لا نقدر أن نفعل شيئاً سوى الجلوس في هدوء تام انتظاراً لوميض البرق؟ أعتقد أننا يمكن أن نستجيب بإيجابية



أكثر من هذا. وربما مكان البداية هو السؤال عن كيفية تحقيق وعد إرميا بعهد جديد بالضبط وردود الفعل المباشر هو أن نغفر ٥٠٠ عام حتى نصل إلى الرب يسوع وبالطبع كان هو التحقيق والحق.

ولكن لأول وهلة نجد أن الوعد كان للشعب في زمن إرميا وكان يعني أن الله سوف يكتب ناموسه وطريقه وصفاته على قلب الفرد. والعهد القديم يحتوى فعلاً بياناً بحدوث ذلك، وأوضح ما نجده بهذا الخصوص هو في المزامير الجميلة حيث يبتهج المرنم في التأمل المفرح المنظم للمكتوب (مثال مز ١، ١٩، ٣٧، ٤٠، ١١٢، ١١٩) وهنا نجد أن الناموس صار جزءاً من الفرد، ولم يكن إرميا غريباً عن هذا الاختبار: "وَجِدَ كَلَامُكَ فَأَكَلْتُهُ، فَكَانَ كَلَامُكَ لِي لِلْفَرَحِ وَلِبَهْجَةِ قَلْبِي" (١٥: ١٦) وهكذا كان مثل شجرة مزروعة على نهر وقادرة على سحب مياه الحياة عبر جذورها. والآن لا نستطيع بالطبع أن نجبر نعمة الله، لكننا نستطيع أن نضع أنفسنا في طريقها إن صح هذا التعبير.

وهناك قيمة هائلة في الدراسة اليومية المنتظمة التأملية لكلمة الله، وإننا بحاجة إلى ذلك حتى إذا وجدنا أن الممارسة غير واقعية أو مؤلمة، بل نحتاج عندئذ إلى ممارسة أكثر من ذي قبل. وأعرف أناساً تأملوا في أية واحدة لعدة أسابيع وذلك حتى تكون هناك الفرصة لكي تغوص مواعيد الله في نفوسنا أو تتخلل داخلنا، ومن ثم نفتح على الله بمستويات لم تكن ندري بها. وتلك طريقة رئيسية سوف يكتب بها الله ناموسه في أعماق قلوبنا. هذه طريقة نستطيع أن نفتح بها نفوسنا نحو النعمة. والثانية هي محاولة إعطاء بعض القيمة لاختبار البرية. وسفر التعزية الذي

نحن بصدده الآن، يحتوي على جزء غامضٍ إذ يقول: "هُوَذَا زَوْبَعَةُ الرَّبِّ تَخْرُجُ بِغَضَبٍ، نَوْءُ جَارِفٍ. عَلَى رَأْسِ الْأَشْرَارِ يَثُورُ. لَا يَرْتَدُّ حُمُو غَضَبِ الرَّبِّ حَتَّى يَفْعَلَ، وَحَتَّى يُقِيمَ مَقَاصِدَ قَلْبِهِ. فِي آخِرِ الْأَيَّامِ تَفْهَمُونَهَا" (٣٠: ٢٣، ٢٤). كان "لوثر" يدعو دينونة الله بأنها "عمل الله الغريب" فقد أصبح مفقوداً في أرض جافة قاحلة، لكن إرميا يقول إن الله لا يعاقبك هباء بل "أُوذِّبَكَ بِالْحَقِّ" (٣٠: ١١).

فربما يلزم أن تذهب إلى الصحراء لكي تجد نعمة، وربما لا تجد الله سوى في أرض غريبة، وأحياناً يكون صمت الله هو الذي يقودنا إليه، كذلك اختبار الصراع والفشل والجفاف وخدمة الله التي تبدو بلا هدف والتلمذة المطيعة قد تكون طرقاً يجذبنا الله بها نحو قاع الصخرة، وهذا هو عمل الله الغريب، وهو عمل صالح طالما أنه يقودنا في النهاية إلى تلمس الصخرة. وهناك منظور ثالث في سفر التعزية يختص بأهمية التوبة. وهي بالطبع عطية من الله كما أدرك ذلك إرميا بقوله: "تَوْبِنِي فَأَتُوبَ" (٣١: ١٨). بيد أن التوبة تشعرننا بأنها شيء يجب علينا نحن أن نعمله وكأنه مُنصب كله علينا. أمّا أصل مشكلاتنا عادة فهو عدم الرغبة في التوبة (أو التغيير).

وربما نؤخذ بالأذى الذي نتحمّله أو بالمجهودات التي نقوم بها أو بالفشل الذي يسمح الله به لنا، ومن ثم ننغلق على احتمال الدهشة بالفرح الإلهي. ولقد قال لي صديق قضى وقتاً في أفريقيا إنه في وقت النهضات الكبرى هناك لم يتم وصف الذين اختبروا نعمة الله بأنهم قد "تباركوا" أو قد "اعتمدوا بالروح" أو قد "تجددوا" بل كان وصفهم أنهم أولئك الذين قد "تابوا" فعلاً.

## الفصل العاشر

مَدِينَةَ حَصِينَةَ وَعَمُودَ حَدِيدٍ وَسُورَ نَحَاسٍ (١: ١٨)  
 "الْكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ، بَعْدَ مَا  
 أَرْسَلَهُ نَبُورَزَادَانُ رَئِيسَ الشَّرْطِ مِنَ الرَّامَةِ، إِذْ أَخَذَهُ  
 وَهُوَ مُقِيدٌ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى جَدَلِيَا بْنِ أَخِيْقَامَ بْنِ شَافَانَ  
 الَّذِي أَقَامَهُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَدَنِ يَهُودَا، وَأَقِمْ عِنْدَهُ فِي  
 وَسْطِ الشَّعْبِ، وَأَنْطَلِقْ إِلَى حَيْثُ كَانَ مُسْتَقِيمًا فِي  
 عَيْنَيْكَ أَنْ تَنْطَلِقَ. وَأَعْطَاهُ رَئِيسُ الشَّرْطِ زَادًا وَهَدِيَّةً  
 وَأَطْلَقَهُ. فَجَاءَ إِرْمِيَا إِلَى جَدَلِيَا بْنِ أَخِيْقَامَ إِلَى الْمِصْفَاةِ  
 وَأَقَامَ عِنْدَهُ فِي وَسْطِ الشَّعْبِ الْبَاقِينَ فِي الْأَرْضِ"  
 (٤٠: ١-٦).

"وَكَانَ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ، أَنَّ إِسْمَاعِيلَ بْنَ نَثْنِيَا بْنَ  
 أَلِيشَمَاعَ، مِنَ النَّسْلِ الْمَلُوكِيِّ، جَاءَ هُوَ وَعُظْمَاءُ الْمَلِكِ  
 وَعَشْرَةُ رِجَالٍ مَعَهُ إِلَى جَدَلِيَا بْنِ أَخِيْقَامَ إِلَى الْمِصْفَاةِ، وَأَكَلُوا  
 هُنَاكَ خُبْزًا مَعًا فِي الْمِصْفَاةِ. فَقَامَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ نَثْنِيَا  
 وَالْعَشْرَةُ الرَّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَضَرَبُوا جَدَلِيَا بْنَ أَخِيْقَامَ بْنَ  
 شَافَانَ بِالسَّيْفِ فَقَتَلُوهُ، هَذَا الَّذِي أَقَامَهُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى  
 الْأَرْضِ. وَكُلُّ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، أَيُّ مَعَ جَدَلِيَا، فِي  
 الْمِصْفَاةِ وَالْكَلدَانِيُّونَ الَّذِينَ وُجِدُوا هُنَاكَ، وَرِجَالُ الْحَرْبِ،  
 ضَرَبَهُمُ إِسْمَاعِيلُ، فَلَمَّا سَمِعَ يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ  
 الْجِيُوشِ الَّذِينَ مَعَهُ بِكُلِّ الشَّرِّ الَّذِي فَعَلَهُ إِسْمَاعِيلُ وَسَارُوا  
 لِيُحَارِبُوا إِسْمَاعِيلَ بْنَ نَثْنِيَا، فَوَجَدُوهُ عِنْدَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي  
 فِي جَبْعُونَ.... وَلَمَّا رَأَى كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي مَعَ إِسْمَاعِيلَ  
 يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ الَّذِينَ مَعَهُمُ فَرَحُوا.  
 فَدَارَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي سَبَّاهُ إِسْمَاعِيلُ مِنَ الْمِصْفَاةِ، وَرَجَعُوا

وَسَارُوا إِلَى يُوْحَانَانَ بْنِ قَارِيحَ. أَمَّا إِسْمَاعِيلُ بْنُ ثَنِيَا فَهَرَبَ بِثَمَانِيَةِ رِجَالٍ مِنْ وَجْهِ يُوْحَانَانَ وَسَارَ إِلَى بَنِي عَمُّونَ... فَأَخَذَ يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ وَكُلَّ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ الَّذِينَ مَعَهُ، كُلَّ بَقِيَّةِ الشَّعْبِ الَّذِينَ اسْتَرَدَّوهُمْ مِنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ ثَنِيَا مِنَ الْمِصْفَاةِ، بَعْدَ قَتْلِ جَدَلِيَا بْنِ أَخِيْقَامَ، رِجَالَ الْحَرْبِ الْمُقْتَدِرِينَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَالْخِصْيَانَ الَّذِينَ اسْتَرَدَّوهُمْ مِنْ جِبْعُونَ. فَسَارُوا وَأَقَامُوا فِي حَيْرُوتَ كِمَهَامَ الَّتِي بِجَانِبِ بَيْتِ لَحْمٍ، لِيَسِيرُوا وَيَدْخُلُوا مِصْرَ مِنْ وَجْهِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا خَائِفِينَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ بْنَ ثَنِيَا كَانَ قَدْ ضَرَبَ جَدَلِيَا بْنَ أَخِيْقَامَ الَّذِي أَقَامَهُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى الْأَرْضِ" (٤١: ١-٣، ١٨-١١).

"وَكَانَ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ أَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا. فَدَعَا يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ وَكُلَّ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ الَّذِينَ مَعَهُ، وَكُلَّ الشَّعْبِ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، وَقَالَ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَرْسَلْتُمُونِي إِلَيْهِ لِكَيْ أَقِي تَضَرُّعَكُمْ أَمَامَهُ: إِنْ كُنْتُمْ تَسْكُنُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، فَإِنِّي أَبْنِيكُمْ وَلَا أَنْقُضُكُمْ، وَأَغْرِسُكُمْ وَلَا أَقْتَلِعُكُمْ. لِأَنِّي نَدِمْتُ عَنِ الشَّرِّ الَّذِي صَنَعْتُهُ بِكُمْ. لَا تَخَافُوا مَلِكَ بَابِلَ الَّذِي أَنْتُمْ خَائِفُوهُ. لَا تَخَافُوهُ، يَقُولُ الرَّبُّ، لِأَنِّي أَنَا مَعَكُمْ لِأَخْلِصُكُمْ وَأَنْقِذُكُمْ مِنْ يَدِهِ" (٤٢: ٧-١١).

"فَلَمْ يَسْمَعْ يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ وَكُلَّ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ وَكُلَّ الشَّعْبِ لِسُوتِ الرَّبِّ بِالْإِقَامَةِ فِي أَرْضِ يَهُودَا، بَلْ أَخَذَ يُوْحَانَانُ بْنُ قَارِيحَ، وَكُلَّ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ، كُلَّ بَقِيَّةِ يَهُودَا الَّذِينَ رَجَعُوا مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ الَّذِينَ طُوِّحُوا إِلَيْهِمْ لِيَتَغَرَّبُوا فِي أَرْضِ يَهُودَا، الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَبَنَاتِ الْمَلِكِ، وَكُلَّ الْأَنْفُسِ الَّذِينَ تَرَكَهُمْ نَبُوزَرَادَانُ رَئِيسُ الشَّرْطِ، مَعَ جَدَلِيَا بْنِ أَخِيْقَامَ بْنِ شَافَانَ، وَإِرْمِيَا النَّبِيِّ وَبَارُوحَ بْنِ نِيرِيَا، فَجَاءُوا إِلَى أَرْضِ مِصْرَ

لَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِيصَوْتِ الرَّبِّ وَأَتَوْا إِلَيَّ تَحْفَنَحِيْسَ" (٤٣: ٤-٧).

يقولون إن السفر يوسّع الإدراك، وعندما تقضي فترة في بلد آخر فهذا يساعدك على أن ترى ما هو صالح أو غير صالح في بلدك أنت، ولكنك تدرك فجأة إمكانية المصادقة مع الغرباء تماماً ثم تتعلم فجأة التقدير لكل ما هو هناك. وربما لن تلاحظ شيئاً في بلدك ما لم تذهب إلى مكان غريب. وقراءة سفر إرميا هي بمثابة رحلة إلى الخارج، وكل ما حدث له هو غريب بالنسبة لنا وبعيد عن اختبارنا نحن، ولكن عندما نقابل غرابة رسالته واختباره نبدأ عندئذ نرى عاملنا وحياة إيماننا نحن بتحديد أدق، وهذا أحد الأسباب التي تدفعنا لقراءة العهد القديم بجدية ولا نتعامل معه كأننا محظوظون إذ نخرج منه أفكاراً مباركة.

إن صورة إرميا تتعارض كثيراً مع ما نفترضه عن المسيحية الحقيقية. وعلى سبيل المثال عندما نقدم الإنجيل فإننا عادة نسأل هكذا: "هل أنت مكتئب؟ أو وحيد؟ أو هل تبدو الحياة بلا هدف؟ وهل نومك سييء؟ هل تريد أن تكون سعيداً أو منجزاً؟ تعال وضع حياتك مع المسيح". وربما يجدر بنا أن نسأل هكذا: "هل كان إرميا سعيداً أو صاحب إنجاز أو ينام جيداً؟" إنه لا توجد ضحكات كثيرة في سفره، وأحياناً نعطي انطباعاً أن مَنْ يصبح مسيحياً مؤمناً يشبه مَنْ ربح مليوناً من الجنيهات في البورصة. وإذا تطلعنا إلى موضوع للصورة فقد نجده في فكرة الأمانة وكان إرميا هو النبي المستمر الثابت، وكأنه بركة الكآبة في العهد القديم، ونحن نرى في أمانته أشياء جديدة تختلف عما في أذهاننا عن الحياة المسيحية.

**حيث لا يجب أن يكون العمل:**

لقد هبط كل شيء فجأة بعد سقوط أورشليم، وقد بدأ البابليون خطة الترحيل والتدمير المنظم للمدينة، وعينوا جدليا حاكماً ومنحوا الأراضي للذين اختاروا البقاء، وهكذا استمرت الحياة ولكن بهاءها قد ولىّ وزال. أمّا كرازة إرميا فكانت مناسبة جداً للبابليين، وكان له حق اختيار المكان الذي يريد أن يعيش فيه. وبالرغم أنه أصر في إعلانه بأن مستقبل الشعب كان يقع على المسبيين إلا أنه اختار قرعته مع الذين بقوا، ولم يذكر السبب.

في البداية نجح ذلك المجتمع الصغير، وكان جدليا رجلاً صالحاً وصديقاً لإرميا وأحد أعضاء عائلة وقفت كثيراً مع إرميا. وبدأت الأرض تنتج زيتاً وخبزاً وفاكهة. والإسرائيليون الذين هربوا إلى البلاد المجاورة عادوا واستقروا، وحتى الحجّاج أتوا ليعبدوا في خرائب أورشليم والواقع أن المتفائل منهم كان يرى أن ما حدث هو إتمام حرفي لنبوءات إرميا عن العزاء، ذلك إذا كان لا يرى عن بعد أو يرى بعيون نصف مغلقة. وبعد ذلك حدث ما لم يتم الكلام عنه، وهذه الاستعادة الصغيرة انتهت بالعنف إذ قتل جدليا بواسطة محارب متعصب ربما ظن أن جدليا كان يتعاون مع العدو المختل، وبرغم أن القاتل قد أبعده بسرعة إلا أن القادة الجدد لتلك الجماعة خافوا من انتقام بابل وقرروا الهرب إلى مصر طلباً للنجاة وأجبروا إرميا أن يذهب معهم، وعلى قدر معلوماتنا فإنه لم يعد منها أبداً. ولئن كانت هذه هي نهاية قصته فهي نهاية حزينة.

لقد ظل إرميا لأكثر من عشر سنوات يكرز بأن المستقبل كان مع المسبيين في بابل، وأن الله سوف يبدأ معهم عمله الصبور في إعادتهم وهم الذين كانوا يمثلون "الَّتَيْنِ الْجَيِّدُ" (٢٤: ٣) أمّا الشعب الذي تخلف في الأرض فسوف يفتقدون

الخروج الجديد العظيم. وبالرغم من معرفة إرميا لكل ذلك إلا أنه اختار أن يخدم في الخلف، وكأنه يريد أن يؤكد على النقطة ذاتها بأنه كان مجبراً فعلاً لكي يخدم الله بعيداً عن مكان العمل. وكانت مصر تبعد مليون ميل عن المكان الذي سوف يحدث فيه كل شيء. وكل هذا يضع علامة استفهام على واحد من أكثر معتقداتنا الذهنية. وإننا نميل إلى الاعتقاد بأننا سوف نكون دائماً بالقرب من مركز نشاط الله العلني، وقد يتناسب هذا مع ما لنا من حب العظمة. وعادة يتحدث المؤمنون كما لو أن تحركهم إلى مدينة جديدة أو عمل جديد هو في المقام الأول لكي يعمل الله بطريقة خاصة من خلالهم، وكأننا في تواضعنا نرسم أنفسنا في صورة ما ونضع الرب يسوع في الوسط. وربما كل الكنائس تحلم أحلاماً بأنها سوف تصبح أنواراً تضيء المنطقة.

وربما يظن كثيرون أن الله سوف يتم مقصده من خلال مسيحية الغرب! وقد يحتاج مثل هؤلاء إلى إقناع كبير قبل إقرارهم بأن الله إنما يقوم فعلاً بعمله "الجديد" في أفريقيا أو في جنوب أمريكا. وهناك صور أخرى لغريزة تسلط الأضواء، ويوجد الآن كتب كثيرة تشرح أحداث العالم بطريقة تجعل القارئ يقتنع أنه يعيش في الأيام الأخيرة! والافتراض هو أن الرب يسوع ربما سوف يختار أن يأتي ثانية في زماننا وليس بعد ألف عام أخرى.

وهذه الغريزة أو المقدرة الطبيعية تظهر ذاتها أيضاً في جماعة المعجبين ويعتبرون أن الله مثير للعجب إذ يعمل خصيصاً في الأحداث الكبيرة والشخصيات المميزة. وأرجو أن لا يسيء أحد فهمي، ولا شك أن الله يعمل في كل هذه المجالات وربما نعيش نحن في الأيام الأخيرة، ولكنني أشير فقط إلى

تفضيلنا البشري أن نكون حيث يكون هناك عمل بارز. وبيّن لنا إرميا أنه من الأهم أن نخدم الله بإخلاص حيثما يريدنا أن نوجد أفضل من السعي وراء الأضواء، وإلا فإننا نغتصب نظام أولويات الرب. وقد يريدك الرب أن تعظ لآلاف الجموع في ستاد كبير، ولكن من الجانب الآخر ربما يريدك أن تعلم ستة فتيان مرة كل أسبوع ولمدة أربع سنوات في قاعة متهالكة... وبالرغم من أن إرميا كان نبياً للشعب كله إلا أنه لم يذهب وراءهم طلباً للشهرة.

### شيء قليل الثمن:

ليس غريباً أن نتوقع أن تكّلل جهودنا بالنتائج الطيبة، وربما نقول إن الزرع الأمين لا بد له من حصاد، وربما لا يثيرنا هذا الفكر أننا قد ندفع نفوسنا نحو الموت حتى يأتي آخر ويجمع الأطياب. وإننا بحاجة أن نؤيد فكرة البناء للأجيال التي لم تولد بعد. ونحن هنا بصدد عمل قام به إرميا يدعو إلى استفهام، إذ نجده مرة أخرى عند نهاية المطاف وكأن رجل الله هذا يريد أن يشرح لنا هذه النقطة بكل قوة ممكنة، ذلك أنه لو كانت النتائج هي الأمر الهام لجاء إرميا في قاع القائمة، فقد كرز بالتوبة معظم أيام حياته ولكن لم يسمعه أحد حقيقة، وكرز بأن السبي سوف يستمر دهوراً من الزمان لكنه اعتبر نبياً كاذباً. وفي نهاية سيرته قال للذين أرادوا الهرب إلى مصر أن يبقوا في يهوذا لكنهم رفضوا أن يسمعوا له.

وفي مصر هاجم النساء اللواتي تعبدن لإشتار ملكة السموات "إِنَّا لَا نَسْمَعُ لَكَ الْكَلِمَةَ الَّتِي كَلَّمْتَنَا بِهَا بِاسْمِ الرَّبِّ بَلْ سَنَعْمَلُ كُلَّ أَمْرٍ خَرَجَ مِنْ فَمِنَا فَنَبْخِرُ لِمَلِكَةِ السَّمَاوَاتِ وَنَسْكُبُ لَهَا سَكَائِبَ. كَمَا فَعَلْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَمَلُوكُنَا وَرُؤَسَاؤُنَا فِي أَرْضِ يَهُودَا وَفِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ



فَشَبِعْنَا حُبْرًا وَكُنَّا بِخَيْرٍ وَلَمْ نَرِ شَرًّا" (٤٤: ١٦، ١٧) وقالوا جميعهم إن كل المصائب التي جاءت بيهوذا كانت بسبب أن بعض الناس مثل إرميا توقفوا عن التبخير لها "وَلَكِنْ مِنْ حِينَ كَفَفْنَا عَنِ التَّبْخِيرِ لِمَلِكَةِ السَّمَاوَاتِ وَسَكَبِ سَكَائِبَ لَهَا احْتَجْنَا إِلَى كُلِّ وَفَيْنَا بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ" (٤٤: ١٨).

وبدا كأنه قد كتب على إرميا أن يتكلم بالحق ولا يسمعه أحد، وفي نهاية الأمر لم يكن لديه ما يقدمه كنتيجة لمجهوداته، وصحيح أنه كسب ولاء باروخ وحماية عائلة شافان له وشفقة عبد ملك الكوشي "فَلَمَّا سَمِعَ عَبْدَ مَلِكِ الْكُوشِيِّ رَجُلٌ خَصِيٌّ وَهُوَ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ أَنَّهُمْ جَعَلُوا إِرْمِيَا فِي الْجُبِّ وَالْمَلِكُ جَالِسٌ فِي بَابِ بَنِيَامِينَ خَرَجَ عَبْدَ مَلِكٍ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ وَقَالَ لِلْمَلِكِ: يَا سَيِّدِي الْمَلِكُ قَدْ أَسَاءَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ فِي كُلِّ مَا فَعَلُوا بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الَّذِي طَرَحُوهُ فِي الْجُبِّ فَإِنَّهُ يَمُوتُ فِي مَكَانِهِ بِسَبَبِ الْجُوعِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَعْدُ حُبْرٌ فِي الْمَدِينَةِ" (٣٨: ٧-٩) ولكن عدا ذلك كانت خدمته خالية من أي نجاح.

ولكي أوضح النقطة مرة أخرى أقول إن الله قادر تماماً بأن يبارك مجهوداتنا مباشرة وبوضوح وبسرعة، وليس خطأ أن نضع أهدافاً ونصلي من أجلها ونتوقع استجابات لها. ولكن لسوء الحظ قد يقودنا هذا إلى نوع من التركيز المتشكك على ما هو قابل للقياس أو الحساب من عدمه. ولعل كنيسة العهد الجديد قد صلت من أجل شجاعة أكثر لفتح باب الإنجيل أكثر من النتائج في حد ذاتها، وبالتأكيد شاهدوا نتائج وفيرة لكنهم كانوا في مشيئة الله الكاملة. وفي نهاية سيرة الرب يسوع كان له مجرد حفنة من النساء الباقيات وقلة من الرجال الخائفين كنتيجة مرئية لخدمة شاقة اقتربت

من ثلاث سنوات، لكن كان المهم أنه أنجز العمل الذي كلفه به الآب حتى المنتهى.

وبذات الأسلوب يرينا إرميا أن رجل الله قد يُطلب منه أن يستر متكلماً بأمانة عن كلمة الله دون أن يرى نتائج ملموسة. وربما كانت النساء اللواتي تعبدن لإشتار ملكة السموات هن الأمل الأخير، وربما توقعنا أن يهرب إرميا بعد فشله الذريع لكنه استمر بأمانة وبدون كلل كارزاً بنفس الرسالة القديمة التي تكلم بها في شبابه.

### إقامة غير ثابتة:

عموماً لا نتوقع أن نكون أسوأ حالاً لأننا مؤمنون، وبالطبع نحن متعودون على التضحية وأنا يجب أن ننكر ذواتنا ونحمل الصليب ونتبع المسيح، ولكن الله يريد أن يرى مدى صدقنا ومدى عمقنا في هذا السير. وأحياناً يعلم الناس أن السيد المسيح سوف يبارك مادياً ومالياً كل مَنْ يسلم حياته له، وأنه سوف ينجح في امتحاناته وسوف تنجح أعماله التجارية وسوف يحصل على عمل جيد. وأكثر من هذا فإننا لا شعورياً نفترض بأنه إذا قدمنا لله فهو بالتالي يجب أن يعوّض لنا، وربما لا نعني ذلك إلا عندما تصادفنا أزمة في الحياة ونتساءل عما يفعله بنا الله ونصرخ عندما تكون الأمور ليست على ما يرام، لكن مثل هذا السؤال يفقدنا الحل، لأننا نفسر البركة في أضيق صورها مثل عمل ما أو زواج أو سيارة فخمة وكأن الله هو سياسة الضمان الإلهي.

ولا يتفق إرميا مع هذه النظرية، لأنه لم يحصل على بركة ما ولم يكن ناجحاً ولا آمناً، والواقع أنه تخلص تدريجياً من كل أمان ممكن، وقد مُنع من الزواج وبالتالي حُرّم من الأولاد وهم كانوا يمثلون نوعاً من الضمان الاجتماعي في ذلك

الزمان. ثم إنه قُطع من أصوله وتغرب عن عائلته وكان مكروهاً من أهل قريته، وتألّم جسدياً من الأغنياء والأقوياء لاسيما عندما شهد عن الخراب لكل علامات إحسان الله إلى إسرائيل. ولكنه "تكرّم" من أعداء وطنه وهو التكريم الذي كان يستحقه بدونهم.

ثم رأى المجتمع الجديد يتمزق بعنف أثناء محاولتهم البقاء بعد الكارثة، ولم يستطع أن يختم أيامه في أرض وطنه بل ذهب إلى مصر كفرد وسط مجموعة متحللة بخوف الهرب، ومن ثم لم يتمتع بحقل حننيا الذي اشتراه. وفي ضوء هذه السيرة، ما معنى البركة والنجاح والأمانة؟ كان إرميا رجلاً فقد كل ما يعطي للحياة قيمة. ولكن الغريب أنه اقتنص شيئاً عن سبب حدوث ذلك! فقد حدث أثناء حكم يهوياقيم أن باروخ قد وصل إلى نهاية مطافه واستسلم قائلاً: "وَيْلٌ لِي لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ زَادَ حُزْنَآ عَلَى أَلْمِي. قَدْ غُشِيَ عَلَيَّ فِي تَنْهَدِي، وَلَمْ أَجِدْ رَاحَةً" (٤٥: ٣).

وهنا ظهرت أهمية إجابة إرميا، وكانت تلك الأيام هي الفرصة التي مزق فيها الله شعبه، فكيف يتوقع أحد في مثل ذلك الوقت أي نوع من الأمان أو العلاج المتميز؟ إذن كان يكفي لباروخ أنه بقى حياً: "وَأَعْطَيْكَ نَفْسَكَ غَنِيمَةً فِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَسِيرُ إِلَيْهَا" (٤٥: ٥). وربما تكون هذه مجرد تعزية لكن إرميا تعلم الدرس العظيم أنه عندما تهتز الأرض أو تتزعزع الجبال وعندما يصبح الله ناراً ممحصّة لا يوجد إذن مكان للاختباء، والأمان الوحيد نجده في التحليق على أجنحة العاصفة أي في الله وحده. وهكذا فإن الرجل الذي فقد كل شيء قد تعلم أن يستريح في المكان الوحيد الذي لا يتزعزع مطلقاً. كان إرميا يملك حق الكلام.

وبعدما هاجم كل أمان كاذب وكل بركة كاذبة نجده يخبرنا بالذهاب إلى الماء الحي بدلاً من حفر آبار جافة، وهو بسبب أمانته لله قد اكتشف مصدر الأمان الوحيد الذي ينبغي الحصول عليه والنجاح الوحيد الذي يستمر. وهو لا يزال يتحدث إلينا بينما نحن نتصارع مع التضخم والفساد، ومع التبيد والبطالة، ومع الاعتداء على حقوق و الآخرين، ومع المستقبل.

### أريد ما فوق فقط:

هناك جانب معيّن في حياتنا نتوقعه من الله وهو مجال المشاعر. وفي رواية ما قال المؤلف إن الحياة تذر بما فوق وبما تحت، لكن إجابة أحدهم كانت أنه يريد ما فوق فقط. ولعل المؤمنين يتوقعون شعوراً جيداً في علاقتهم مع الله، وربما إذا لمحنا مجموعة الكتب في كنائسنا اليوم نجد أن جزءاً كبيراً منها يُكتب عن مواضيع تتصل بالمشاعر مثل التوافق مع الاكتئاب أو اختبار الفرح، ويحكم الناس على العبارة بحسب قدرتها على جعلهم سعداء، ذلك لأنهم يتوقعون الدفاء بعد فترات الصلاة لاعتقادهم بأن الشركة هي اتحاد وغطاء دافئ وشعور جميل بنهاية اليوم، ويكون السبب المعقول لحدوث أزمة في الإيمان أو السقوط التام هو لأنني "لا أشعر بأن الله كان هناك".

ولا يبدو أن إرميا كان قد تمتع باختبار سعيد مع الله. وهناك إشارات منفصلة إلى كلمة الله بأنها "لِلْفَرَحِ وَلِبَهْجَةِ قَلْبِي" (١٥: ١٦) وأحياناً صرخة التسبيح "رَبِّمُوا لِلرَّبِّ. سَبِّحُوا الرَّبَّ لِأَنَّهُ قَدْ أَنْقَذَ نَفْسَ الْمَسْكِينِ مِنْ يَدِ الْأَشْرَارِ" (٢٠: ١٣) لكنها قليلة ومتباعدة. وقال أحد المفسرين إن الاختبار الأساسي لإرميا مع الله كان عن القوة العارية، ولسنا بحاجة كبيرة لكي

ندرك بأن الأولوية كانت هي إعطاء إرميا "شعوراً حسناً" في حياته.

لكن ما يأتي مؤكداً من خلال كلام إرميا كله هو أن الله هناك، فهو موجود سواء أدرك الناس ذلك أم لا، وهو هناك سواء شعر إرميا نفسه بذلك أم لا، وكان لإرميا شعور غامر بحقيقة الله حتى لو ساءت مشاعره ولم يقدر أن يرى هدفاً لمسيرته. ولذلك كان الموضوع الرئيسي لكراسة إرميا هو إمكانية الاتكال على الله ذلك فقط لأنه موجود. وبما أن الله حقيقي فيجب إذن الاتكال وبناء الحياة عليه هو حتى لو ظهر أن هذا إنما يقودك إلى مشكلة أو عزلة أو ظلمة.

وإذا استطعنا أن نقبض على هذه الحقيقة فلاشك أن حياتنا سوف تتغير. وطالما أن الله حقيقي فيجب أن نثق بأنه يُغيرنا من خلال صلواتنا اليومية حتى لو لم نشعر بشيء قط. وطالما أن الله حقيقي فيجب إذن أن نقدم له التعبد سواء أدى ذلك بنا إلى شعور طيب أم لا. وطالما أنه موجود فيجب إذن أن نفعل الصالح حتى لو بدا ذلك غباوة. وطالما أنه موجود فإذن "تَعَبْنَا لَيْسَ بَاطِلًا فِي الرَّبِّ" (١كو ١٥ : ٥٨) حتى لو بدا ذلك مضيعة للوقت.

وطالما أنه موجود فإن أربعين عاماً تُقضى في الصلاة من أجل أحدهم ليس إهداراً للزمن. وطالما أنه موجود فإذن كل كلمة يُنادى بها في اسمه لا بد أن تفعل شيئاً سواء قوبلت بالازدراء أو الإهمال. من عادة الناس أن يقولوا إنهم يريدون أن يصبح الله حقيقة واقعية لهم، وهذه صلاة لها قيمتها لكنها تحتاج إلى توازن بحقيقة أن الله "واقع موجود" سواء حدث ذلك لنا أم لا. والإيمان الذي يعتمد على تأكيده بالمشاعر فإنه يفقد جوهره أي عنصر الثقة. وإن كنا نتحرك فقط

استجابة لمشاعرنا فكأننا ننكر ضمناً حقيقة وجود الله، ومن ثم يصبح الله مرتبطاً "بمشاعرنا الطيبة" ويصبح من اختلاق اختباراتنا، ونبدأ نحكم على وجوده بواسطة مشاعرنا وننتهي إلى صنع المشاعر لكي نجعله موجوداً... لاشك أن إرميا كان نبياً قاتماً ومربكاً، وعندما درست سفره وجدت نفسي متعجباً جداً ليس مما صنعه أنا به بل مما صنعه هو بي.

وإذ نودعه الآن وهو في مصر بعد فقدان الشهرة وبشعور واضح من الكرازة الفاشلة، فقد نشعر بشيء من الأسى نحوه، وربما نشعر كذلك بأن مثل هذا النوع من التلمذة يتطلب الكثير جداً منا، لكن الله حفظ وعده له أن يجعله "مَدِينَةً حَصِينَةً وَعَمُودَ حَدِيدٍ وَسُورَ نَحَاسٍ" ولكن يا ترى ما نوع هذا الوعد؟! وبالرغم من كل ذلك فإننا بحاجة إلى شهادة إرميا، فما هو نبي تكلم لمدة أربعين عاماً ضد كل محاولة لتخفيف ولاء الشعب لله، كما وقف أمام الأقوياء والمتدينين ودعاهم للعودة إلى الطريق القديمة "هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: [قِفُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَنْظُرُوا وَأَسْأَلُوا عَنِ السَّبِيلِ الْقَدِيمَةِ: أَيْنَ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّالِحُ؟ وَسِيرُوا فِيهِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَا نَسِيرُ فِيهِ!]" (٦: ١٦) وظل صادقاً مع الله بينما كانت الأصوات ترن في رأسه بأنه غبي، لكنه استمر يركز بالدينونة في غضب ولكن أيضاً بدموع، وركز بالرجاء بينما كان العالم من حوله ينهار ولكنه بالرغم من كل ذلك استمر أميناً مخلصاً.

لقد جاهد الجهاد الحسن، وحفظ الإيمان محتملاً حتى النهاية. إننا نحتاج أن ندع أمانته نتحدث إلينا لاسيما عندما نُجرب بالوقوع في الإيمان المتمركز حول المشاعر أو الانتصار الذاتي. إننا نحتاج أن ندعه يقول: "إِسْمَعُوا وَاصْغُوا. لَا

تَتَعَزَّمُوا لِأَنَّ الرَّبَّ تَكَلَّمَ. أَعْطُوا الرَّبَّ إِلَهُكُمْ مَجْدًا قَبْلَ أَنْ  
يَجْعَلَ ظِلَامًا، وَقَبْلَمَا تَعْتُرُ أَرْجُلُكُمْ عَلَى جِبَالِ الْعَتَمَةِ،  
فَتَنْتَظِرُونَ نُورًا فَيَجْعَلُهُ ظِلًّا مَوْتٍ، وَيَجْعَلُهُ ظِلَامًا دَامِسًا. وَإِنْ  
لَمْ تَسْمَعُوا ذَلِكَ، فَإِنَّ نَفْسِي تَبْكِي فِي أَمَاكِنَ مُسْتَتِرَةً مِنْ  
أَجْلِ الْكِبْرِيَاءِ، وَتَبْكِي عَيْنِي بُكَاءً وَتَذْرِفُ الدَّمُوعَ، لِأَنَّهُ قَدْ  
سُبِيَ قَطِيعُ الرَّبِّ" (١٣: ١٥-١٧).

## خاتمة

### من أجل دراسة أكثر

بعد وصولك إلى نهاية هذا السفر يجدر بي أن أقترح عليك  
طريقتين تتبع بهما دراستك لإرميا. الأولى هي أن تقرأ النص  
الكتابي، وقد يكون ذلك أصعب مما تعتقد، لاسيما بعدما  
تكتشف أن أصحابات سفر إرميا قد تربك القارىء الحديث.  
وكثيراً من أصحاباته لا تاريخ لها، والبعض منها يمكن أن  
تضعه في أي وقت من فترة خدمة إرميا. وعلى أي الأحوال  
فإن النظام المقترح هنا سوف يقدم لك قصة مترابطة تاريخياً  
من خلال السفر. ويجب أن أشدد على القول بأن هذا  
الاقتراح هو أحد الاقتراحات المتعددة والممكنة فقط، وهو  
بالترتيب الآتي: ١، ٢ - ٦، ٧، ٢٦، ١٩، ٢٠: ١-٦، ١١: ١٨-  
٢٣، ١٢: ١-٦، ١٥: ١٠-٢١، ١٧: ١٤-١٨، ١٨: ١٨-٢٣، ٢٠:  
٧-١٨، ٤٦، ٣٥، ٣٦، ٤٥، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٢٣: ٩-٤٠، ٥٠،  
٥١، ٢١: ١-١٠، ٣٢، ٣٢، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٣٠، ٣١، ٤٠-  
٤٥.

ثم لعلك تحتاج إلى كتاب أو أكثر عن إرميا. ومن بين أفضل ما  
قرأت هو كتاب "الصليب في العهد القديم" للمؤلف "هويلر

روبنسون" (١٩٥٥) وكتاب "خادم ونبى الله" للمؤلف "جون جولد نجاي" (١٩٨٤) أمّا إذا كنت تريد دراسة شاملة لكل السفر فالأفضل هو أن تقرأ "سفر إرميا" لمؤلفه "تومسون" (١٩٨٠) لأنه يحتوي على كل ما ترغب في معرفته عن إرميا ولكني أهتمس في أذنك بأنه كتاب مكوّن من ٨١٩ صفحة فقط!.

## محتويات الكتاب

### مقدمة

### الفصل الأول

### الفصل الثاني

### الفصل الثالث: مطرقة تحطم الصخور

### الفصل الرابع: الأكذوبة الكبرى

### الفصل الخامس: أمضى من السيف

### الفصل السادس: النبع الجاف

### الفصل السابع: التكلّم برؤية كاذبة

### الفصل الثامن: سبعة عشر شاقلاً من الفضة

### الفصل التاسع: نعمة في البرية

### الفصل العاشر: مدينة حصينة

### خاتمة

الترقيم الدولي ١٩٩٧ / ٥٨٤٧

I. S. B. 977- 210- 094- 6